ليل

سفاح جبال بكر

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : ليل سفاح جبال بكر
تأليف : مي ياقوت
تصنيف الكتاب : رواية
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢١٠٠٣ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 52 - 6

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

ليل
سفاح جبال بكر

رواية

مي ياقوت

إهداء

إهـداء إلى هـذا الصخـب الـذي نعيـش فيـه والذي نـدرك فيه أحيانًـا مـن نحـن وتتوه فيـه أنفسـنا في أحايـين كثيرة ..

إهـداء إلى الوحـدة التـي نبغضهـا ولم نجـرب أن نصادقهـا، رغـم أنهـا لم تـك أبـدًا قريبًـا قاسـيًا أو صديقًـا غـادرًا أو فاشـية لـسر أو قاهـرة لقلـب، فبالرغم مـن جفائها كانت ملهمـة ووحيًا وطاقـةً وأمـلاً وصـبرًا وتأمـلاً وراحـةً مـن عِجاف القلـوب .

إهـداء إلى الحـزن الـذي يلمسـنا تـارةً أو ذاك الـذي نغـرق فيـه أنفسـنا لسـنين طويلـة فيشـكل الكثـير مـن صفاتنـا ويصقلنا بالخـبرات .

إهـداء إلى الكبـوات التـي بيَّنت لنـا الصديق والمنافـق وأكدت مـن هـو العدو .

إهـداء إلى مـن خذلونـا وإلى الأصدقـاء الرائعـين الذيـن ظلوا داعمـين، إلى مـن أرادوا لي العيـش في سـلام، وكان عيشـهم بـردًا وسلامًا .

إهـداء إلى الرفـق واللـين والوصل الـذي افتقدنـاه، إلى الحنين، إلى أولئـك الـذي ترفعوا عـن أخطائنا فمـروا بها كِرامًـا أو كانوا خـط دفاع حتى تسـتقيم الأمـور وبعدهـا قمنا بحـب وحنان فلم يحيكـوا لنا المكائـد أو يختزلونا أو يشـوهونا.

إهـداء إلى كتـل النـور، إلى العرَّابـون الثلاثـة لهـذه الروايـة بجزأيهـا، إلى الخـل الـوفي و النـادر، إلى نصفـي الآخـر، وإلى توأم الـروح شـقيقتي وعائلتـي، وإلى روح جـدتي الطيبـه التي أشـتاق إليهـا كثـيرًا، إلى الأشـياء التـي تضفي بهجـة في حياتنـا، إلى زهور عبـاد الشـمس، إلى الأمـير النبيـل في حكايـات الأسـاطير، إلى الصدفـة التـي تكـن خـير مـن ألـف ميعـاد، إلى « النكتـه» الحلوة التـي تجعلنـا نسـترق ضحكـة تخـرج مـن القلـب في زمن عـز فيه الفـرح، إلى فرحـة غائبـة ننتظرهـا وإلى السـكينة التـي نوقـن بأنها يومًـا مـا سـتملأ أرواحنـا ..

استطراد

إلى مـن أمسـك معولاً ليهدم غـيره، حقدًا، غـلاً أو كراهيةً .. فـالله هنـا .. هنا ليبنـي.. الله هنا في قلوبنـا التي تنبض حبًـا ومودةً ورحمـةً وإيثـارًا وتسـامحًا إن اسـتطعنا منذ الفطرة .. هـذا صنع الله فـلا تهـدم صنعه فلـن يرضيه ذلـك .. وتذكـر أن دعتـك قدرتك عـلى ظلـم غـيرك فتذكـر قـدرة الله عليـك « و إن في القصـاص حيـاة « ألا تـزر وازرة وزر أخـرى» حتـى لا تعيـد كـرة الظلـم والكـره والغـل لتحـرق الأخـضر واليابس من جديـد.....

الفصل الأول

ليل

«مش قادرة أفتح عيني ..إيه الأصوات دي « حدَّثت نفسها التي انفصلت عن العالم منتقلة إلى آخر سرمدي في مدة لاتعرف إن كانت طويلة أو قصيرة ..كان حولها أصوات نحيب .. لاتسمع أذنيها سوى كلمات استطاعت أن تميزها بأنها تأبين ووداع.

«أنا مت ولا إيه .. اااااه راسي وجعاني جدًا.. أنا مش قادرة أنطق .. حاسة أن جسمي كله مكسر .. الصوت ده أنا عارفاه ..عارفاه كويس ..ده ..ده «، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها المجهد، وحاولت «ليل « أن تفتح جفنيها علّها تفهم ماذا يحدث تحديدًا .

فجأة شعرتْ بقبضته تنتشلها من ياقتي قميصها المموّه .. ترفعها بقسوة من الأرض لتتعلق في السماء، باتت كدمية في يد مارد ..حاولت جاهدة أن تسرق ببصرها أي لقطات لتدرك ماذا يحدث .. صحراء بات عقلها يعطيها إشارات أنها تحفظها عن ظهر قلب .. تلك هي نقطة الحدود، لما يقف هؤلاء الجنود في تربص، هل هي حرب ما، لما لا تتذكر شيئًا، كان جرح رأسها الغائر يؤثر على كافة حواسها، دق قلبها بقوة وبصرها يعدو حدود الوطن فأحدثت حركة عصبية بوجهها وكأنها تريد إخبار «بؤبؤي عينيها « بالتوقف فأين يرحلان بها إلى مابعد الحدود..

لوهلة باتت تدرك أنها في خطر لا تميزه فبديهية الأمور أنها بعد تلك الحدود أصبحت في قلبه.

مسحت بكفها الدم الذي أعاق بصرها..تفحصت ملامحه التي بدت غاضبة حادة ..ازدادت نبضات قلبها عندما أدركت من هو، أحداث ٤٠ يومًا باتت تتوالى صورها أمامها دون ترتيب وكأنها حدثت في ثوان معدودة ،قاومت دموعها إلا أنها هزمتها لتغزو وجنتيها بغزارة، حدَّثت نفسها « جايه تتهزمي دلوقتي بعد ده كله .. هتموتي بنيران صديقة ..ياترى بقى هتتكتبي في المانشيتات شهيدة ولا قتيله ..دي النهاية يا ليل؟» رفعت عينيها نحوه وأكملت حديثها الخاص « يعني ما متش على إيديهم وأموت على إيدك إنت « و مع صرخة قوية أدار جسدها ليصبح نصل سكينه الحاد على رقبتها.

نظرت إلى تلك الحلقة التي تجمَّع الناس حولها بوجوه بائسة، الآن تدرك أنها ساعة إعدامها، الخيانه جزاءها الموت لامحاله، « ولكن هل خنتك يانوري ؟.. هل أنت مقتنع بذلك حقًا أم أنك تدفع باتهام باطل كذريعة لهدر دمي .. لِما تلك التهمة ولِما هذا الانتقام المر، كنت أعتقد أنني أغلى وأولى من كل هذا « هكذا حدثتها ظنونها بعد فوات الأوان، نظرت إلى حدود حبيبه إلى قلبها، ابتسمت وهي تتذكر لافتة مكتوب عليها « كتيبة الشهداء» وهي تدلف باب المعسكر

الكبير الذي يحمل نفس رقم الكتيبه التي غطت معها عمليات كثيرة كمراسل حرب، عندما تم قبولها في التحرير العسكري لأول مرة، إلى جانب القوات لمحت العقيد « أبو الدهب « و « عليوة» رفيق الكفاح المر بوجهين مصفرين مضطربين الوضع برمته بات خارج عن السيطرة.

«الخاين عندنا جزاؤه الموت ..مبروك للكل النصر.. كلاب نار وماتوا.. بس إحنا لينا حق وهناخده عشان راسنا متندفنش في التراب .. التشميس ملوش رجعه وحقه الدم ..ارفعوا روسكوا « قالها بلهجتة العرباوية الفجة وبصوته المبحوح المميز، أمَّا هي فابتسمت في هدوء أيقنت أنه لايمكن لأحد التدخل الآن، كانت تتذكر كلمات ورثتها من قناعات أصيلة « أن جاك الموت موت واقف واضحكله» والحقيقة أن الوضع قائم كعملية صعبة ،الطبيب فيها يحتاج إلى فتح جرح ليريح المريض، ولكنه يعلم أن باقي المرض سينتشر ولايعلم إن كان سيستطيع علاجه أم لا .. في كل الأحوال المريض مقتول هي مسألة وقت .. العجز ياسادة شعور مميت وإن كان هو المرادف الآخر للقهر البطئ الذي ليس له علاج إلا التناسي ..التناسي فقط ..نصل السكين بدا حاميًا .. كان يصل إلى مسامعها صوت قرع لباب رغم أن الصحراء دون أبواب إلا أن القرع بات ملهوفا ملتاعًا.

شعرت بخصرها تعتصره قبضته تمهيدًا للنحر، رغم كل شئ كانت مطمئنة، قالت لنفسها «دي حلاوة الروح بس .. أنا كل اللي خايفه منه الألم ..ياترى اللي بيدبح بيحس بإيه « ..نظرت لعينين طفل في العاشره كان يبكي في حرقه ممسكًا بدميته على شكل جمل « ايوا أنا اعرفه.. ده ياسين ابن النوري « .. حدثته بلغة العيون .. ارحل ياصغيري فالمشهد قاس عليك ..المشهد فوق سن الثامنة عشر مثلما يقولون وابتسمت وكأنها تداعبه لتغمز له بعينيها فيبتسم هو الآخر، وكأنه فهم « النكته» لينخرط في بكاء أمر محتضنًا والدته التي كانت تبكي هي الأخرى

حرَّك سكينه فانفجر الدم ليغرق وجهها وخصلات شعرها الأسود المجعد الطويل لتسبل عينيها وأخر ما تسمعه صوت صراخ القوم.. قوم ماقبل الحدود ومابعدها.

ذكرياتها وهي تسبل عينيها تمر عليها كشريط سينمائي في ثوان « هكذا يحدث للأموات» حدثت نفسها في صمت « ترى إلى أين سأذهب .. أريد أن يوارني ثرى مصر .. أريد أن أدفن في بلدي» .. كسرت حاجز الصمت بوميض قادم من الماضي تحديدًا عام ٢٠١٢ محدثة قاتلها « أنا كنت في مهمة مضحكتش عليك « .

***

الفصل الثاني

القاهرة منتصف ٢٠١٢

صالة تحرير الجريدة

« ياسادة عاوزين نعمل تحقيق استقصائي صادم، حاجة قوية تضيف للرأي العام وتضيف لرصيدنا عند الشارع وتنور الدنيا لصنَّاع القرار، الدنيا بايظة من كل حاجة» قالها مدير التحرير فيما كان كل واحد منا يطرح أفكارًا كثيرةً إلا أنا فلم يكن في ورقة أفكاري سوى فكرة واحدة عن « الباب الخلفي الذي انتشر منه كل هذا السلاح الذي بتنا نراه في شوارع مصر وبأرخص الأثمان»، فور سماعه للفكرة وافق عليها إلا أنه قال لي إنها فكرة تحتاج لفرضيات كبيرة ومجهود أكبر وسفر إلى مابعد الحدو للوصول للحقيقه وهو ما أبديت رغبتي فيه فقال لي « طبعًا التحقيق مشترك بينا وبين جورنال الحقيقة ..

معاكي توأمك في الشغل»، فأومأت برأسي إيجابًا، فقال لي « بس أنا مش موافق لأنك هتشتغلي مع زميلك الجديد وده ميقلش خبره عن أي حد « تجهمت قليلاً محاولة الدفاع عن رفيق الكفاح فتحدثت بجدية « عبد الوهاب عليوة صحفي خبرة ومفيش منه، وده تحقيق صعب ومش لسه هجرب حد و «أشار لي مدير التحرير بانتهاء الحوار بشكل ودي وبضرورة الذهاب إلى مكتبي فهناك عمل كثير ينتظر أن أنجزه والحقيقة

أنـه كان يريـد أن يعجـل بلقائـي بزميـلي الجديـد والـذي كان مفاجـأة مـن العيـار الثقيـل فقـد فوجئـت بانتقـال عبدالوهـاب نفسـه للعمـل معنـا في الجريـدة وأخـيرًا نحـن فريـق عمـل واحد لمـكان واحد.

***

كل فرضياتنـا بـاءت بالفشـل الذريـع فلـم تصـل الخيـوط إلا لطـرق مسـدودة وهـو ماجعلنـا مُحبطـين قليـلاً حتـى تقابلنـا مع « حسـين فكـه» والحقيقـة أنـه كان شـخصًا سـمجًا ولزجًـا وغير مريحًـا، ولكنـه ومقابـل ٢٠٠ جنيـه أوشي عـلى « المعلم سـلطان» كبـير تجار السـلاح بالدلتا لنمسـك بـأول الخيوط، كان « سـلطان « قويًّـا وشـامخًا لديـه كلمـة بألف كلمـة وهو مـن فتح لنـا أبواب جبـال المطاريـد حيـث كانـوا يحترمونـه ويهابونـه لنعـرف الكثـير عـن التجـارة المشـبوهة للسـلاح الغير مرخـص و التـي انتشرت عقـب ثـورة ينايـر في سـوق أسـود لا قوانـين لـه، وكيـف أثرت حالـة الانفـلات الأمنـي على الانتشـار وعـلى عمليـات التهريب والحقيقـة أيضًـا أنهـم كانـوا يشـعرون بالنشـوة للحديـث مـع صحفيـين في هـذا التوقيـت واسـتعراض القـوة الـذي مـن شـأنه إرسـال رسـائل شـديدة اللهجة لرجـال البدلة المـيري التي بدأت

في التعـافي، وخضنـا الرحلـة ذهابـا وإيابًـا مـن الدلتـا إلى جبـال الصعيـد إلى الواحـات ثـم إلى الفيـوم و إلى الصعيـد الجـواني ثـم إلى الـبراني حتـى وصلنـا إلى حدودنـا مـع ليبيـا .. تلـك الحـدود شـديدة الاتسـاع التـي كان مـن الصعـب التحكـم فيهـا حتـى اسـتقرار الأمـور ومـع اتفاقنـا مع قصـاصي أثر شريفـين لم يرضيا بـما يقـوم بـه « الهليبة» مـن الناحيتين تمكنا من أن نكون شـاهدي عـلى صفقـات سـلاح فقـد كانـوا يثقـون بقصاصينا مما سـهل لنا عمليـة التواجـد لنكشـف عن أسرار ذلك السـوق الأسـود الذي زاد مـن نسـب العنـف والجريمـة في الشـارع المـصري، التقينـا « النـوري» في صدفـه كانـت خـير مـن الـف ميعـاد و الـذي أوقفنا موكبـه بعـد أن أطلـق عـلى سـيارة « الهليبـة « التـي حاولـت أن تعتـدي عـلى موكبـه النـار، والحقيقـه أنـه كان محبًـا لمـصر ودائـم الزيـارات لهـا تربطـه بينه وبـين قبيلتـه وقبائل في السـلوم أواصر نسـب وصـلات، بمجـرد أن ترجـل السـائق أطلـق رجالـه عدّة رصاصات.

***

الفصل الثالث

ناعسة

استيقظت فزعه، صوت الرصاص الذي سمعته من وميض الماضي كأنه انطلق الآن، ابتسمت لي « ناعسه» زوجة «النوري» ووضعت « منشفة» باردة على رأسي «إيه ده، أنا ممتش ؟!.. جوزك مقتلنيش» جرى ياسين لينادي والده فرحًا فيما قالت هي « لا .. إحنا أعصابنا سابت لما شفنا الدم بس طلع عور معصمه وفداكي بدمه والقبيله كلها فرحت» قربت كأس ماء مني لأرتشف منه القليل قبل أن أسألها « طب أنا ليه هنا.. ليه مش في مصر » ساعدتني في العودة لوسادتي وقالت « النوري حكم تفضلي هنا لحين ماتخفي خالص ويرجعك معززة مكرمة قال لازم يحكي معك وانتي بوعيك ..نامي ياليل الحمى اللي سببهالك الجرح لسه ماثره عليكي»، تركت يدها وأسبلت جفني .. «ليل» هكذا يناديني البدو وهكذا أطلقت على نفسي اسمًا حركيًّا في مهمتي الانتحارية مع «أبو الدهب» و «الرويعي» ..، «الرويعي» ..ترى لما لم أراك يوم المشهد العظيم ..أين كنت ..أتمنى أن تكون أمورك بخير هكذا حدثت نفسها قبل أن تغلق عينها .. استسلمت لوميض آخر قادها للقائها الأول مع «النوري» .

***

« مبروك ياسيادة المقدم» قالها « أبو الدهب» لتلميذه الذي بدا فخورًا به وبرتبته الاستثنائية ليرد عليه « الله يبارك فيك ياسيادة العميد مبروك ليك برده يافندم»، نظر له «أبو الدهب» في خبث « ومالها وحشة كدة ليه»، ابتسم « الرويعي» « هي فريدة هترجع امتى يافندم؟» تنهد « فريدة كده على طول مفيش هانم ولا أستاذه» ،ابتسم ليداري حزنًا ما « تعرف يافندم أنا كنت عاوز أقعد معاها في ليبيا بس للأسف محدش رضي»، امتقع وجه «أبو الدهب» ليتحدث بسخرية « ليبيا إيه يابني ..إيه الفيلم الهندي ده ..هي في عنين مصر وهترجع معزّزه مكرّمة، مسألة يومين تلاته، في خطر على صحتها وبيطمنونا عليها كل ساعتين تلاتة وبرده تقديرًا للراجل اللي منفذش فيها حكم الإعدام ده .. مابص البت فريدة دي مرزقة في كل خرابة تلاقيلها عفريت ..تراهني هترجع من هناك عملالك مانشيت تلاتة من ليبيا»، ضحك «الرويعي» قبل أن يكمل «أبو الدهب» إلا قولي صح.. ساعة ما النويري مسكها وانت كنت عاوز تجري تعدي الحدود تتخانق معاه كأننا في عركة في حارة عندنا في الوراق ولا إمبابة ومسكناك وحبسناك في عربيه الأمن المركزي إيه ياد كمية التخبيط اللي خبطتها عالباب جوا دي ؟» شعر الرويعي بالحرج فتلثم « ياباشا فريدة هانم غالية عندي وزي أختي والموقف كان صعب

وكنا لسه خارجين من قصة شفيق اللي محدش كان يتخيلها دي و . «قاطعه أبو الدهب » «أيوا ياحنين زي أختك أه .. ده أنا عندي صداع من ساعتها وهدفعك تمن برشام الصداع اللي بشتريه من ساعتها بردة» .

***

نزل رجال موكب «النوري» المسلحين بتراخيص في مواجهة الهليبه الذين اعتذروا كونهم لم يعرفوا أنه « النوري» وقتها سألت سالم قصَّاص الأثر عنه فقال لي إنه « الأمير النوري» أحد أساطير أمراء القبائل الليبية البدوية في العدل والحكمة وإنه شاعر وحكيم وباطش وإنه من السهل أن نكمل تحقيقنا أن عدونا الحدود بتصاريح لزيارته، ولكن كيف سنتعرف عليه.

شرع عبد الوهاب في ابتكار حيلة بأن تحدث الليبيه مدعيًّا أنه من نسائب النوري الذي ترجل من السيارة ليقابله والذي كان حاسمًا لم ينخرط عليه لهو عليوة رغم حديثه اللهجة الليبية بطلاقة.

النويري: قريبي منين

عليوة: إحنا قرايب مرتك

النويري:مرتي اسمها إيه

تلعثم عليوة قليلا فشد « النويري» أجزاء سلاحه لأترجل من السيارة ووقتها طرأ في خاطري فكرة أن أمثل دور الخرساء لأكسب تعاطفه من ناحية ومن ناحية أخرى لأتجنب الحديث بالليبية التي ستكشفنا والحقيقة أنه حدث شئ لم أتوقعه فقد تعاطف كثيرًا وأحب لغتي بإشارة والتي أجبته بها أنه من عادات القبائل عدم ذكر أسماء النساء أمام الرجال فابتسم فتحدث إلى سالم و الذي كان يعرفه بحكم أنه قصَّاصا للأثر إن كنا مع «الهليبة» فنفى وقال إننا معه من قبيلة من نسائب زوجته فعلاً وأنه تصادف وجودنا فقط، فعزمنا «، النوري» عند أصهار لأبناء عمومته بالسلوم وهناك كان اللقاء الثاني.

***

دخل «النوري» سريعًا فوجدني أغط في سبات عميق، شعرت «ناعسة» بالغيرة فيما نظر لياسين عاتبًا عليه أن ناداه ليبشره بأنني استرددت وعيي فيما يرى حالتي كما هي .

«هي فعلاً قامت وقالت عاوزه أرجع مصر» قالتها بهدوء حاولت اصطناعه، اقترب منها وقبّل رأسها ويدها فشعرت بأنه أثلج صدرها من نار أشعلتها الغيرة وخطا عدة خطوات فناداته «يالنوري .. ياحبيب القلب أدري زين

.. هتقبل راسي ويدي مش محبة خالصة فيه ..هتقبلها عشان عم بد داويها ..هي طيبه وتستاهل وداوتني قبل سابق وانت نور عيوني وماطيقش عليك تحزن ولو أنكوي أنا واني خابره لو ليل انصابت بِشرَّ هينكسر قلبك وهتحزن عينك ياواد عمي وده ميرضنيش أبدًا ، تنهدت «ناعسه» «أزيدك من الشعر بيت يا غالي .. والله كنت واقفه واثقة إنك ماراح تذبحها .. كنت حزينه بس عشان كنت واثقه إنك راح تأذى نفسك فالوجع اللي فيك هيوجعني ..ليل في عيوني ياعيوني» .

زفر «النوري» زفرة حارة «أزيدك من الشعر أنا بيت والله إني ما اشتهيها يا ناعسه واعرف إنك بت عمي وأكتر حد راح يفهمني في العالم هاد كله .. إني أحبها .. هي شي غالي ..وفريدة واسمها فريدة .. هي مثل السمك واني ماني بحرها ولو احب السمك .. فديتها لأنه هذا العدل ياناعسه واني النوري والنوري ماعرفتيه ظالم .. ما كان يصير أشمسها.. أعدمها ليش يابت عمي من الأساس ؟؟»

تنهّد وأكمل «هي ماهي ليل هي فريدة علم الدين .. هي ماكانت هون بليبيا كانت هنيك بالسلوم بمصر .. كان يصير أتراجع وأقول صحفيه وقامت بمهمتها ما أصر إنها عروس وهربت من ليلة زفاف ماهو عرسها أصلاً

.. أحبها ياناعسه بس ما احبها كمرة .. وماذنبها إنها مرة .. أنا أحبها كمرة بمية رجال .. ما عملته أمام الخلق كان تصحيح وضع يابت عمي .. كلمتي اللي خفت تقع ودمها اللي خفت ينهدر وهيبتي اللي خشيت تتهز لما الغضب والهوى عموني عن الحق « .. ابتسم وقال بنبرة حانية» مافي بحياتي غير مرة واحدة واسمها ناعسة ريحي بالك «

تنهدت «ناعسه» وهي تسمع خطواته تبتعد فيما ظلت تبرد «الأقمشة» لتبرد بها نار الحمى التي اشتعلت في جسدي دون سبب واضح بعد أن حار فيه الأطباء منذ ليلتين هكذا عرفت فيما بعد .. وميض آخر يأخذني إلى صالة التحرير .

***

الفصل الرابع

شفيق

« مـبروك التحقيـق بتاعكـو مكـسر الدنيـا» قالهـا «الأسـتاذ مجـدي» مديـر التحريـر وهـو ممسـك بالطبعـة التـي كان عنوانهـا « خريطـة السـوق الأسـود للسـلاح في مـصر»، شَـعر « عليـوة» بالغبطـة وهـو يـشرح للصحفيـين تحـت التمريـن عـن المخاطـر التـي تخطيناهـا وعـن الشـخصيات العجيبـه والثقافـات المختلفه التـي احتككنـا بهـا طـوال التحقيـق، وكيـف تعاملنـا بهـا وكيف كنـت سـأصبح عروسًـا بـين ليلـة وضحاهـا لواحـد مـن مـن مشـايخ البـدو خـلال شـهر واحـد فقـط علمتـه فيهـا ثقافـات كثـيرة عـن بـلاد أوروبـا والمثقفـين والحضـارات القديمـه لينبهر بعقـلي وهـو مـارآه طبيعيًّـا رغـم أننـي كنـت أمثـل الخـرس والحقيقـه أن « عليـوة» كان ظالمًـا فلـم يحـب النـوري أبـدًا فـكان يـراه مختـالا بأصولـه ونسـبه وسـلطانه ومتعجرفًـا وللإنصـاف لقـد تعلمـت كثـيرًا من «النـوري» فقـد أصقلنـي مـن حكمته في مواقفـه وصـبره وعلمنـي مبـادئ رياضـة المبـارزة والتـي عـدت للقاهـرة واشـتركت في أحـد النـوادي المتخصصـة لاحترفهـا كـما تعلمـت منـه بعـض القصـص عـن الفلـك والعبـارات عـن النجـوم التـي اسـتخدمتها فيـما بعـد عـن كتابـاتي، لم أذكـر أبـدًا لـ «عليـوة» أننـي تركـت خطابًـا للنـوري أثنـى فيـه عـلى حكمتـه ووقـاره واتزانـه ورجاحتـه واشـتماله بخصـال الفوارس وانـني تعلمـت منـه مـالم أتعلمـه في الكليـات والمـدارس وأنـه صديـق رائـع وانـني أسـعد في الاسـتمرار في مراسـلته تاركـة

لـه عنـوان الجريـدة وإن لم يراسـلني فالرجـل كان شـهمًا كريـمًا، مـر أسـبوعان ونسـينا القصـة وبدأنـا في البحـث عـن موضـوع جديـد .. كان هـو «سـفاح الصعيـد أو سـفاح الجبـال» مثلـما بـدأ يـذاع صيتـه.

أحـضر عليـوة لكلينـا كـوبي قهـوة فيـما ظللنـا نراجـع بعـض الأحـداث، عندمـا دخـل الأسـتاذ الأمجـد وقـال « فريـده عليـوة عاوزيـن ملـف كبـير عـن ثـورة يناير وكـمان أعيـاد الشرطـه .. بقولكـم إيـه فاكريـن أمـا نزلتـو يـوم ٢٥ لحـد ٢٨ تغطـوا الأحـداث اكتبولنـا ريبورتاجـات»، نظرنـا إلى بعضنـا والحقيقـه أن تلـك الأيـام كانـت أيامًـا لاتنسـى، لـن ننسـاها أبـدًا، فقـد ارتبطـت معنـا بأحـداث كثـيرة لم نكـن نعلـم أنهـا معقـودة بالمـاضي ومربوطـة بالحـاضر والمسـتقبل و لا أعلـم لما جـاء عـلى بـالي « شـفيق» الـبرئ وصديقـه، ارتشـفنا القليـل مـن القهـوة وعدنـا بالذاكـرة إلى الـوراء قليـلا .

يناير ٢٠١١

كل شـئ انقلـب رأسًـا عـلى عقـب بـين ليلـة وضحاهـا.. فـما حـدث في تونـس مـن ثـورة عارمـة حـدث في مـصر غضبًـا مـن ممارسـات الحكومـة الأخـيرة ..انطلـق الكثـير مـن النـاس خلـف سراب واسـع ..نعـم كانـت أهـداف نبيلـه وحقـوق مشروعـة، ولكـن ثـورة بـدون قائـدك «الخناقـه الـلي شـويه

وهتنفض» هكذا كانوا يقولون وربما بات الطرف المحق فيها مخرِّبًا وظالمًا وأساء التقدير وهذا ماحدث فعلا، نعود إلى تلك اللحظه التي باتت مرعبة فصوت مكبرات المساجد بضرورة نزول الأهالي لعمل ما أسموه باللجان الشعبية كان مثيرًا للفزع ..بات الأطفال لايفهمون شيئًا .. يسألونك في براءة «هو الوي وي بيضرب مين واحنا بنحارب مين» «الوي وي» هكذا كانت تقول نجلة شقيقتي الصغيرة التي لم تتعدى سنواتها الثلاث والنصف هكذا كانت تميز رجال الشرطه ..كانت تناديهم ب «السارينه» في طفولة تجبرك على الضحك وتجبرك أيضًا طريقتها التي كانت تنطقها بحزم وجديه على احترام رجال البدلة الميري الذين دفعوا الثمن غاليًا في تلك الثورة التي ركبها المتأسلمون فأوقدوا فتيل الفتنه بين الشعب وشرطته وسكبوا البنزين وزادوا الأمر اشتعالاً فربما كان المؤيد للصالحين الكثر منهم وقتها كان الأطفال فقط وسط أذان صُمت وعيون باتت عمياء من بث الحقد والكراهيه مستغلين تصرفات كانت فردية وقتها وإن زادت قليلاً .. الحقيقة أنه كان وقتا مخيفًا مبهمًا فأيام معدودة أثرت لسنوات طوال في تاريخ الوطن وغيَّرت مستقبله، وربما خريطة الشرق الأوسط كله والحقيقة أن الوطن تخبط بين صواب وخطأ.

هنـاك عند أحـد المتاجـر التـي كان يسرقهـا الغوغـاء ..كانت الفـوضى العارمـة تعـم المـكان فـلا مـكان لناصـح، ولا كلمـة مسـموعة لحاكـم فالـكل يجـري محمـلا بغنائـم حـرام يسـتبيحها بحجـة «الثـورة» .. «الثـورة» التـي أشـعل جذوتهـا خـير شـباب مـصر قبـل أن يسرقهـا أشرار وخبثـاء .. «الثـورة» التـي انتلقـت عفويـة فلـم تجـد قائـدًا حقيقيًـا فقادهـا الكثـيرون فتنازعـوا فماتـت كضحيـة تحـت قـدم المصالـح والمكتسـبات والتـي كان وقتهـا الكلمـة الفصـل للأغلبيـة المتكتلـة التـي لم تكـن سـوى للإخـوان المسـلمون، وياليتهـم لم يدخلـوا السياسـه فـمال ديـن الله بأمـور تحكمهـا الأكاذيـب والتلويحـات والافـتراءات والفتـاوى، في هـذا الوقـت كان في مـصر ٩٠ مليـون مفتيًـا وسياسـيًا مثلـما كنـا نقـول، فـكل يتبنـى وجهـة نظـر يخرجهـا مـن شـائعة يطلقهـا ويصدقهـا أو يسـتمع إلى «روبيضـاء» مـن الإعلاميـين كل منهـم بـوق لمـن تتبـع لـه سياسـة القنـاة التـي يعمـل بهـا .. كانـت مـصر في حالـة يُرثـى لهـا وبـات شـباب الثـورة تائهًـا بـين هنـا وهنـاك .. بـين مصالـح وضغائـن وقصـص أخـرى باتـت وليـدة لحظـات عـسرة، ولكـن كلنـا كنـا نقـول إنهـا ظلـمات يونـس التـي سرعـان ماسـيبددها الله الـذي يسـمع ابتهالاتنـا وإقرارنـا بأننـا ظالمـين .. نعـم ظلمنـا أنفسـنا .. وظلمنـا الوطـن ..وظلمنـا الثـورة ..فضعنـا وضيعنـا كل شـئ وقتهـا.

مشـهد سرقـة المـول الكبـير كان عبثيًا ..ومشـهد اقتحام قسـم الشرطـة الـذي كان بجـواره كان أشـد عبثًـا وقسـوة ... كنـا نرى أن الوطـن يتهـاوى في فجـوة سـحيقة، لكننـا كنا نثق بـأن الجيش لـن يـترك الحـدود ولا البيـوت وأنـه في الوقـت اللازم سـيتدخل ليحكـم الأمـور ويحمـي إرادتنـا .. هنـاك عنـد قسـم الشرطـه لمحتـه بين ما اسـموا أنفسـهم متظاهريـن والحقيقه أن مـن قادهم كانـوا مـن المخربـين .. اسـتطاعوا أن يحلـوا محل شـياطينهم التي وسوسـت إليهـم ليشـعلوا النـار مـن تحـت رمـاد غـل أو حقـد أو غضـب مـن إخوانهـم أصحـاب البـدل المـيري وقـد كان .. رأيـت عينيـه ..كنت أسـمع صوتـه عاليًـا ممزوجًا بتشـفي غريب .. أنـت هنـا يـا شـفيق .. العـرق يتصبـب منـك في أوج بـرد يناير ..صوتـك بـات مبحوحًـا مـن هتـاف ربـما لايفهمـه أمثالك غير أن حقـدك الدفـين يحـركك لارتـكاب جريمـه ربـما لـن تغفرهـا لنفسـك ..حاولـت الاقـتراب منـه فلم اسـتطع من كثـرة الجموع التـي اقتحمـت بالفعـل القسـم.. وسـط هـروب جماعـي مـن ضباطـه الذيـن اختاروا الهـرب بدلاً مـن المواجهة مـع المتظاهرين بالرصـاص وإسـقاط ضحايا فخلعـوا الميري واختلطـوا بهم حتى فـروا مـن جحيم سـلط عليهـم وعجزوا عـن مواجهتـه فلم يكن هنـاك أذان تسـمع ولا عقـول تسـتوعب الكل مـاض في طريقه ك « الزومبي» وكأنهم مسـحورين بسـحر أسـود ينفـذون مايؤمرون بـه دون تفكـير، مـن بعيـد رأيـت ضابطًـا لم يتخـل عـن بدلتـه ..

كان زيه يدل على أنه من الأمن المركزي .. لا أعرف ما الذي أتى به نحو القسم مترجلاً بسرعة وبشكل مضطرب كهذا.. كيف يملك الجرأة لمواجهة هذا الطوفان الأعمى.. ولماذا... لا أعلم حقًا كيف استطاع الدخول لمكان بجوار القسم ليخرج حاملاً صديق له بالبدله الميري أيضًا، ولكنه كان ينتمي لقطاع الأمن العام ويبدوا أنه كان مُصابًا إصابة بالغة.

فجأة تحرك ٦ من «الزومبي» نحوه ليحاصروه هو وزميله وسط كم من الإهانات التي أتوا بها دون سلطان بين .. اندفعت نحوهم في محاولة لإنقاذ الموقف الذي بات متأزمًا .. لم يستمع أحد لي بل زاد التدافع نحونا ..«من فضلك اطلعي هتتبهدلي» قالها وفي عينيه الشامخة دموع فيما نظرت لصديقه الذي بات ينزف بوجه مصفر منذرًا بموته وكررت المحاوله قبل أن يظهر « شفيق» ليزود عنا بجسده الضخم وبصوته الجهوري الذي أخاف الكثير منهم فرحلوا نحو القسم ..

نظر له الضابط الذي كان برتبة نقيب قائلاً «شكرًا» في أدب جم وكبرياء عميق فيما جاء رد «شفيق» غليظًا جافًا «مش عشانك يا باشا ولا خلاص معدش في بشويه كلنا ولاد تسعة ...ده عشان خاطر فريدة هانم».. أكمل حديثه بنبرة خالية من الحدة وقال «روحي يا أستاذة فريدة ..

أنـا خايـف عليكـي .. الدنيـا مـش أمـان» ..وجهـت لـه نظـرة عتـب فهمهـا وتجاهلهـا . أخرجنـي مـن شرودي صوتـه «تعـالي معايـا يـا آنسـة لازم تروحـي» .

جرينـا سـويًّا إلى المستشـفى ليسـلم جسـد صديقـه للأطبـاء الذيـن أصابهـم هلعًـا لم نفهمـه إلا بعـد محـاولات إنعـاش لقلبـه بجهـاز الصدمـات الكهربائيـة ليخبرونـه أنه قـد مـات .. لم ينهار أو يبكـي .. فقـط حملـه بـين يديـه ورحـل مشـيرًا لي بـأن أتبعـه .. كان بداخـلي أسـئلة كثـيرة غـير أن هيبـه المـوت وجـلال الموقـف جعـلاني أصمـت عـلى غـير العـادة غـير أنـه شـعر بـما داخـلي فقـال بنـبرة مهـزوزة بعـض الشـئ «مصطفـى الرويعـي .. ظابط أمـن مركـزي ..وده أحمـد إسـماعيل ..كان ظابط عمليات القسـم ويبقـي ابـن خالتـي وصاحبـي الوحيـد .. صـح ياصاحبـي» .. ثمـة دمـوع بـدأت تسـيل مـن عينـي عنـوة عنـي .. لم أسـتطع أن انطـق .. أكمـل وهـو ينظـر إليـه «هـا ياصاحبـي ..هنـاك أحـلى مـش كـده .. أنـا بـس مـش عـارف إحنـا عملنـا إيـه عشـان إنـت تمـوت بالشـكل ده.. كان في تجـاوزات أه ..لكـن محـدش فينـا تجـاوز .. مـش كلنـا تجاوزنـا ... بـس كلنـا قبضنـا عـلى مجرمـين وقتّالـين قتلـه مينفعـش يبقـي ده جزاءنـا.. ياصاحبـي احنـا بندفـع التمـن ولازم نقبـل بـده .. أنـا عـاوزك تعـرف إني مسـبتكش «..نظـر لي» قوليلـه إني مسـبتوش .. أنـا اتاخـرت أه بـس مسـبتوش.»

سقط «الرويعي» أرضًا بالجثمان الذي احتضنه صارخًا باكيًا ينادي باسم « أحمد إسماعيل»..حاولت تهدئته بشتى الطرق مخافةً أن ينطلق نحونا المخربين أو نقع فريسة لدوّامة غضب أعمى مرة أخرى .. أخيرًا استجاب لي ليتركني ويرحل عند ناصية بيتي وقتها ناديته وعرفته بنفسي ليبتسم في مرارة ويرحل.

«شفيق» و«الرويعي» و«أنا» و«شباب التحرير» و«الرويبض ممدوح كماشه» ونظيره «الشيخ سامي نعيم» كنا نماذج لفئات الشعب التي تحركت وقتها فيما ظل «حزب الكنبه» يشاهد ويترقب ..ويترقب ويشاهد وأحيانًا يكتفي بالمشاركه على «الفيس بوك» .. المشاركه التي تظهر «كقطيع متعاطف» أو « قطيع متفائل» أو «قطيع هائم على وجهه» ينساق تارة بين هذا الرأي وتارة بين ذاك .. لا أحد وقتها كان يعلم إلى أين نحن ذاهبون إلا قلة قليلة ..تلك هي الحقيقة المرة ..

ليلة كئيبة .. لم يستطع أيًّا منا النوم .. كلنا بتنا نتحدث ونتحدث ونتحدث وما نصبح فيه نمسي حتى تنحى مبارك ..

كنت كغيري من الشباب أملنا في تغيير جذري وقتها وكنت كغيري أيضًا من الصحفيين الذين باتوا يستشعرون

الخطر وأن الثوره تمت سرقتها فعلاً .. لم أكتب يومًا ضد الداخلية في ذلك الوقت فقد كنا نرى أنها وزارتنا وإن أخطأ بعض من فيها وأعطى الفرصه للسيئين باشتعال المعركه بين الميري والشعب دون العتاب حتى..

كنا نرى أن هناك هدفًا لإسقاط الداخلية والجيش بعدها .. كنا نرى خفافيش الظلام وقد بدأت تظهر في النور بوجه لئيم ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ..رأينا هذا رغم صغر أعمارنا لأن نقابة الصحفيين العريقة لطالما أصقلتنا بتاريخها النضالي في الحريات بالكثير من التجارب التي دوَّنتها وقفات سلالمها الخالده .. من كتبها التنويريه واجتماعات المثقفين فيها كنا نرى أن المتأسلمون يرسمون خططا شيطانية ستهلك الوطن .. لم نخف وقت قيام الثورة ولكننا متنا رعبًا من تصدر المتأسلمون للمشهد .. كنا حزانى فالإساءة تعدّت الوطن إلى قدسية دين بالأساس أول بنود آياته وأحاديث رسوله تتحدث عن الحب والود وعن حرمانية الدم ..

لن أنسى ذلك اليوم الذي نزلنا فيه لانتخابات الرئاسة .. كنا نرى أثناء التغطية الصحفية تخبطًا بين الناس ممن سيضعون صوتهم لوزير الطيران الأسبق مخافة العوده فقط لنظام مبارك الذي كانوا ينظرون له أنه بطلاً لولا حكومة رجال الأعمال وحلم التوريث الذي أطاح بالرجل .. كثيرًا

ماكنا نود أن نقول لهم أن خوفكم من السابق ركنا هامًا، ولكن الرعب الذي ستعيشون فيه مع جماعة تبيح العنف سيكون أركانًا أخرى ..كنا نريد أن نقول لهم أن التاريخ يعيد نفسه وأن الفرص التي أخذوها من أيام صلاح الدين الأيوبي باءت كلها بالفشل الذريع بين أنانيتهم المفرطه ومبادئهم الغريبة التي لاتمت لا من قريب أو بعيد للإسلام خاصة في فكرة الأجنحة العسكرية المسلحة وغيرها من الأفكار التي باتوا يعلنون عنها يومًا بعد يوم فيما بعد لتكون بمثابة الصفعات التي أفاقت الشعب الذي مضى وراء شباب حملة تمرد ..

الحقيقة أن لحظة الإعلان بفوز مرشح الإخوان أصابتنى أنا بصدمة كنت أرى أن كرسي حكم مصر كبيرًا عليه فلم يكونوا مهيئين .. كنت أرى بداية فتنة كبيرة وحكمة قليلة وعنف زائد .. دموع عيوننا وقتها نزلت عنوة عنا أثناء التغطيه كنا نشعر بحسرة من شجع فريق للنهاية وانهزم بشكل فج ..كنا نشعر بنكسة غريبة .. كنا مرتعبون على الوطن ونسيجه .. ليلتها أتذكر أننا قررنا شراء شريط مهدئ أو منوم لننفصل قليلاً عن العالم ..عن نكستنا... عن إحساس بالعجز والقهر أصاب قلوبنا الشابة التي فجأة شعرنا بأنها تعدت المائه عام ..

قسَّم عبد الوهاب عليوة شريط الدواء وأخذت نصيبي وعدت إلى البيت كان جيراننا فرحين بعدم فوز مرشح النظام السابق فالأستاذ حسين كان يرى أن عصر مبارك الأخير ظلمه في عمله ولن يضمن للوطن مستقبل أفضل وأنه لا يريد أن يعيده في شخص مرشحه الذي كان وقتها وزيرًا للطيران في حكومته .. قبل أن أصعد إلى شقتنا قال لي «تعالي يا أستاذة اشربي شربات ندر عملته لو الدكتور فاز» .. زفرت زفرة حارة وأنا أكمل صعود السلم ..قلت له «يارب بس الشربات ده ميبقاش دم .. وأصحاب الدقون يراعوا ربنا فعلاً فينا ميبقاش الأهل والعشيرة بس وميبقاش مفيش وطن و في خلافه .. ربنا يخلف الظنون .. أهم من أنك تتولى حاجه إنك تبقى قدها» والحقيقة أنه تأذى من حديثي فاحتد عليَّ لأول مره منذ ١٠ أعوام كان فيها جارنا وكنت فيها بمثابة ابنة له لم ينجبها هكذا كان يقول فلم يرزقه الله من الأولاد إلا البنين وكان تقريبًا الرجل الوحيد الذي رأيته في كل مرة تذهب فيها زوجنه لرؤية نوع الجنين يردد «يارب بنت» .

«انتو جيل صغير ومش فاهمين يافريدة حكومه مبارك دمرتنا .. عجبك لما كنت نروح قسم والظباط تتعامل معانا من فوق ولا نتهان في أي مصلحه وكله يخلص بالرشاوي

..عجبكم أوي أن مفيش مشاريع جديدة ولا وظايف .. خلينا نجرب حاجة جديدة . ثم الراجل بيقول هحكم زي ماربنا قال يبقى نديله فرصة وبطلوا إحباط وافرحوا بنتيجة الديموقراطية».

لم أشأ أن أدخل في حديث مطول أو أحاول شرح الرؤيا التي كنا قد درسناها بحكم التاريخ .. كنت أرى أن الكثيرين باتوا صمًا فاستأذنت لأكمل الصعود، في الشقة التي تعلوا طابق الأستاذ مجدي كان يسكن «عمو بطرس» مثلما كنت أناديه دومًا خلافًا للجميع الذين كانوا ينادونه بلقبه بال «باشمهندس».. الحقيقة أنه لم يتحدث مطلقًا ..نظر نظرة عميقه تبادلناها ربما حملت لي كل مخاوفه التي أردت أن أطمئنها إلا أن شيئًا ما منعني ربما كان العجز .. لم ننم ليلتها رغم حبوبنا المنومة التي ظللنا نعاتب عبد الوهاب عليها على جروب الواتس اب أنها طلعت «مضروبة» والحقيقة أنها كانت حبوبًا تسبب لل«الفيل»، النعاس مثلما يقولون إلا أن القلق والتوتر وراحة البال التي سلبتها لحظه كانت أقوى بكثير .

جاء حكم الإخوان الذي استمر عامًا بالكاد ليخرج الشعب عن بكرة أبيه مناديًا بإسقاطهم لتحقق ثورة ال ٣٠ من يونيو أهدافها ويرحل مرشحهم غير أن أتباعه

ممـن هـددوا بالتفجـيرات والقتـل باتـوا ينفذونهـا واحـدة تلـو الأخـرى لنغطـي أحداثًـا لم نشـهدها في مـصر قبـل سـابق لتهـدأ الأمـور كثـيرًا بعـد انتخابـات الرئاسـه والتـي بتنـا بعدهـا نشـعر باسـتقرار .. لا أسـتطيع إغفـال أحـداث كرداسـة كنـا أصدقـاء للمأمـور المشـهود لـه بالكفـاءة وطيـب الخلـق .. كنـا نتحـدث كثـيرًا معـه تليفونيًـا قبـل أن نسـمع بالصدفـة عـن هجـوم عـلى القسـم مـن شرذمـه مـن أهـالي كرداسـة ..«كرداسـة» التـي ظلـت لفـترة طويلـة بعيـدة عـن أعـين الحكومـه ليسـتوطن فيهـا الفكـر المتطـرف ..وقتهـا اتصلنـا بـه الـذي لم يـرد أبـدًا.. كنـت مـع زميـلي هيثـم موسـى خبـير الحـوادث والمغامـرات ورفيـق الكفـاح ..

كان يحـاول هـو أيضًـا الاتصـال حتـى أنهى مشـهدًا لن ننسـاه طـوال حياتنـا المحـاولات المضنيـة في الوصـول إلى صديقنـا .. صديقنـا الشـهيد الـذي كان مـن خـير رجـال الشرطـة.. وقتهـا رأيناه غارقًـا في دمـه بعـد أن مثَّـل أتبـاع المتأسـلمون بجسـده.. كنـت لأول مـرة أرى رجـلاً يبكـي بحرقـه.. بكينـا كثـيرًا ..

غـير أن صديقنـا الشـهيد ظـل غائبًـا حـاضرًا بيننا .. سـنوات عِجـاف مـرت عـلى مـصر كان يجـب أن تنتهـي لتنهـض الدولـه والحقيقـة أنهـا أحكمـت سـيطرتها عـلى الفـوضى وكرَّسـت نفسـها للأمـان والأمـن أولاً وهـو ماحـدث ليغـير الإرهـاب

استراتيجيته بعد تضييق الخناق عليه ويشرع في أن يستوطن عدة أماكن بعيدة أو وعرة في الظهير الصحراوي الغربي وشمال سيناء وتبدأ المعارك الاستخباراتية والضربات الاستباقية التي كانت تواجهها ضربات خسيسة تأتي من هنا أو هناك.

***

الفصل الخامس

مهمة في الصعيد

كنت في مكتبي في الجريدة ترقيت وقتها لنائب رئيس قسم ..لم يحركني حقد أو غل على الجيل الذي يليني فأخرج فيه مافعله الجيل الأقدم معي، بل على العكس تمامًا كنت أبث فيهم روحًا أخرى بأن يثابروا وينجحوا ويعلموا ويتعلموا وأن يكونوا دائمًا سندًا لبعضهم البعض ولم أكن كذاك بمفردي فمعظم جيلي إلا قليل كان مؤمنًا بأن الحياة رسالة وأن علينا أن نكون قادة عمل جيدين لننتج جيلاً رائعًا وذهبيًا ينقذ مهنتنا التي باتت تبتعد كثيرًا عن المهنية.

كانت أخبار « خط الصعيد» المجرم تنتشر في كل مكان .. كان أسطورة أعادت للأذهان أسطورة «عزت حنفي» و «النخيلة» غير أنه اختلف عنه بوجود تهم له تلقي بظلالها على إيوائه للإرهاب فكان أعنف وأخطر.. كان ينفذ عملياته القذرة بشكل محنك مابين اغتيالات هنا وهناك لتجار مخدرات لا يستطيع السيطرة عليهم، قررت الاتصال ب «عليوة» لأذكره بسفاح الجبال وكيف أننا منذ عامين تقريبًا كنا قد ناقشنا عمل موضوع عنه وانشغلنا بأحداث أخرى ويبدو أنه حان الوقت.

قصة السَّفاح التي بات يسيطر على جبال بعينها في الصعيد مخربًا وسارقًا وقاتلاً بلا رحمه باتت قصة مشوقة وخطرة ..نحن صحفيو التحقيقات الاستقصائية الذين يهلكهم البحث عن الحقائق ويشعرون بمتعة عرضها مجردة وصولاً لنتائج قوية تنير بصيرة المجتمع، ابتسمت وأنا أرى اسمه فقد كنت أراهن نفسي أنه بنسبة ٩٥ في المائة سيأخذ رأيي لنذهب إلى الصعيد لنتقصى الحقيقة ونعرف من هو « سفاح الجبال» .

– ألو .. عبد الوهاب بقولك إيه ..إيه رأيك نروح الصعيد نشوف إيه الحكاية؟

– فريدة أنا حجزت التذاكر بتاعة القطر أقابلك على المحطة الساعة ٩ الصبح.

ابتسمت ابتسامة عريضة فالحقيقة أن كلينا كان يكون فريقًا صحفيًا رائعًا مثار حسد الكثيرين لم نختلف أبدًا كنا توأمين في العمل رغم اختلاف شخصياتنا تمامًا..أعترف أني أعتبر « عليوة» الذي سيصبح أبًا خلال شهر كان بمثابة أخ لي لم تلده أمي .. ظروف العمل الصحفي الشاقة والمرهقه والتواجد لساعات طوال مع زملاء العمل كلها معطيات تجبركم على الترابط القوي على أن تنشأ أواصر أخوة وإن انقسمتم لفرق للتنافس.

كسبت الرهان مع نفسي بأنه يفكر في نفس الموضوع الشائك، طوال الطريق إلى الصعيد كنا نضع خططاً وأفكارًا لنستطيع جلب معلومات موثّقة عن « سفاح الجبال» المرعب الذي لايعرف عنه الناس شيئًا سوى أنه ملثم وأنه بات صداعًا في رأس الداخلية التي كشرت عن أنيابها بعد معلومات أوَّلية بإخفائه لعدد من الإرهابيين الذين كانوا قد نفذوا عملية خسيسة وهربوا إلى ليبيا، كلها كانت معلومات أوَّلية ترتقي بقدر قليل عن مستوى الشائعات ولاتصل إلى التأكيدات غير أن المؤكد أن « السفاح» حقًا يسكن جباله الشاهقة صعبة التضاريس وإن محاولة اقتحامها بات صعبًا خاصة بعد فشل المأموريات في الاقتراب من الأساس من الجبل الذي نجح في تلغيمه متخذًا جيشًا من المطاريد معتمدًا على « ناضورجيته» و « شياليه» و « الشيال» هنا كان يعني من يعتمد عليهم في إحضار المؤن من الأسواق ليعتلي بها إلى الجبل كوزير تموين لساكنيه.

***

– أنا عاوز الواد ده يتجاب يا أبو الدهب ... إيه حتة عيل هيدوخنا وكل شوية مسببلنا ربكه كده.

-أوامـر يافنـدم هـو بـس المشـكله إننـا لسـه مـش عارفـين نحـدد هـو مـين.

- أبـو الدهـب الوزيـر اختـارك إنـت ومجموعتـك بالـذات عشـان تـروح وترجـع بيـه حـي أو ميـت لـو اسـتخدم العنـف ..الـواد ده يبقـى خطـر بشـكل كبـير.

« أوامـر يافنـدم» قالهـا العقيد مختـار « أبو الدهـب» وهو يغلق الهاتـف مـع مسـاعد الوزيـر للأمن العـام وهو يخـرج زفـيرًا حارًا وينظـر لملـف معنـون باسـم « سـفاح جبـال بكـر» ..ملـف خاليًا مـن أيـة معلومـات شـخصية أو صـورة تعـرف هويتـه ومملـوء بوقائـع قتـل وسرقة واتجار في السـلاح والمخـدرات .. نفخ دخان سـيجارته غيظًـا بعـد أن قـرأ أخـر تقاريـر رجالـه بالصعيد حول فشـل الحصـول عـلى معلومـات ..رفـع سـماعة هاتفـه عـلى مدير مكتبـه ليجهـز ضبـاط فريـق بحثـه فقد قرَّر السـفر بنفسـه.

***

في القـري المجـاورة للجبـل والبعيـدة كل البُعـد عـن التطوير والتـي مازالـت يـد الحكومـه التعميريـة لم تصـل إليهـا كليًّـا مـن حيـث المرافـق لم نجـد أيـة إجابـة واحـدة تشـفي نـار فضولنـا حـول هويـة المجـرم الغامـض وبـات الأمـر صعبًـا للغايـة أو

هكـذا تنبأنـا والحقيقـه أننـا بمجـرد نزولنـا مـن محطـة القطـار قطعنـا الطريـق الطويـل إلى القـرى المتاخمـة للجبـال التـي تمتـد بطـول الصحـراء الغربيـة فمثلنـا لا يهـدأ إلا بالوصـول إلى معلومـة موثّقـة غـير أن الريـاح تـأتي بـما لاتشـته السـفن فقـد فشـلنا فشـلاً ذريعًـا لنقـدم كل الاعـذار إلى الداخليـة التـي كنـا نـرى انهـا تأخـرت في الكشـف حتـى عـن هويتـه فالنـاس هنـا لاتعـرف إن كانـوا يحبونـه أو يكرهونـه فرغـم جرائمـه فقـد كان ميـزان العـدل في تلـك القـرى وكان محسـنًا كثـير العطايـا للفقـراء ولا أعلـم لمـا كانـت تلـك شـيم قطاعـي الطـرق ومجرمـي الصعيـد غـير أن « عليـو» ذو الجـذور الصعيديـة كان لـه وجهـة نظـر أنهـم يحاولـون بتلـك الأفعـال أن يـبرروا جرائمهـم القـذرة أمـام البسـطاء مـن سـاكني تلـك القـرى ليضمنـوا ولاءهـم ويشـعروا أنفسـهم بأنهـم « كبـار» مـكان.

أنهكنـا التعـب، لم نجـد أي مـكان نسـتطيع المكـوث فيـه في أي قريـة غـير أننـا اسـتطعنا الوصول لفنـدق متواضـع في إحدى المـدن التـي تبعـد ٥٠ كيلـو مـترًا عـن القـرى التـي نسـتهدفها، أخطرنـا « الجورنـال» وحجزنـا غرفتين كل منهـما في طابق مختلف واستسـلمنا للنـوم بعـد يـوم مفلـس مـن أيـة معلومة.

***

– منور ياباشا .. منورين يارجالة الصعيد.

– إيه ياضياء بيه مش عارفين تجيبوا الواد وقلنا ماشي ..مش عارفين تحددوه كمان.

– معاليك هتشوف بنفسك القصة صعبة إزاي .. اتفضلوا يارجاله جبنالكم لقمة كدة.

ابتسم الضباط من فريق بحث أبو الدهب فالطريق كان مرهقا وطويلاً وشرعوا في الذهاب تجاه علب «الكشري» قبل أن يلتفت «أبو الدهب» الذي بدا غاضبًا فجأة قائلاً «االاه ما احنا جايين نتفسح هنا ... جيل إيه ده .. أنا مش عارف ليكو نفس تاكلوا إزاي .. كل واحد على شغله» .

ارتبك الضباط الذين أخذ كل منهما علبته ليأكل وهو ماض مع زميله من فريق البحث القديم ليتوغل معه داخل القرى .. نظر «أبو الدهب» للرائد «كريم»مدير مكتبه الذي بدا ممتقعًا بوجه مصفر فقال له «إيه ياكريم مالك يابني .. محسسني إن أول مرة نطلع مأمورية .. افرد وشك ده» ..حاول «كريم» الذي عرف عنه أنه «مكشوف عنه الحجاب» مثلما كان ضباط الأمن العام يلقبونه فقال «أصل أنا ياباشا مس عارف قلبي مقبوض ليه» .. نظر

لـه « أبـو الدهـب» وقـال «ااه اتفائلـت أنـا كـده ..أصلها كانـت ناقصـاك»

***

٣ أيـام كنا نخـرج للبحـث والتقـصي وكنـا نعـود خاويـي الوفـاض و المهلـة التـي أعطتهـا لنـا الجريـدة كأيـام للعـودة ب «ريبورتـاج» محـترم باقـي منهـا ٤٨ سـاعه ..لم نفشـل أبـدًا أنـا و«عليـوه» مـن قبـل في أي مهمـة صحفيـة غـير أن هـذا التحقيـق أصابنـا بالإحبـاط الشـديد .

«مفيـش قدامنـا غـير الشـيَّالين دول» قلتهـا وأنـا أزفـر في ضيـق و أنـا جالسـة عـلى «المقهـي الشـعبي» عـلى كـرسي في أخـره حيـث حـاول «عليـوة» مـداراتي مـن عيـون النـاس هنـا التـي باتـت تلفظنـي فبالنسـبة لهـم مـن الغريـب أن تجلـس امـرأة عـلى «القهـوة» مثلـما يقولـون ولكـي يخرجنـي «عليـوة» مـن ضيقـي الـذي بـات مستسـلمًا كان يطلـق «أفيهـا» مـن وقـت لآخـر كان أخـره «فضحتينـا بقـى وركبتينـا العـار مـش كفايـة مقعـدك عالقهـوة ومسـتحمل نظراتهـم.»

مـن بعيـد لمحتـه .. شـخص كان يتعامـل بشـكل مختلـف ..يجمـع الكثـير مـن الكيلـوات من الخضـر والفاكهـة ..صرخت

في عبد الوهاب الذي بات فتوره يغيظني ليتبعني وبالفعل كان « غانم» أحد «شيالي» السَّفاح.

رمقني بإعجاب لم يعجب « عليوة»

ولم يرقني أيضًا فقد أدخل بداخلي قشعريرة إلا أنني ظللت أحوم حول سيارته قبل أن أذهب لأحدثه بجدية «بيقولوا عليك شيال للسفاح»، نظر لي بفتور وقال بلهجه بحراوية «هما مين دول اللي بيقولو ا»، تدخل عبد الوهاب قائلاً له «كلمني أنا... إيه ده شكلك مش صعيدي» فكان رده الفوري ولا انتو شكلكو كده .. جايين ليه.. بس سيبك إنت، إنت واد رجوله و«حمش» عشان خايف على زميلتك «، نظرنا له في دهشة قبل أن يكمل حديثه «بص هي حلوة.. يتبصلها يعني .. بس أنا ببصلها بإعجاب كده عشان أول بنت أشوفها في الصحفيين اللي جم هنا يدوروا على أصل وفصل الكبير..كلهم كانوا ولاد فمستغرب المجازفه بتاعتها».

«هو في صحفيين غيرنا جم» سألناه في دهشه، فأجاب بفتور «يووووه كتيير ولا واحد فيهم عرف ياخد حق ولا باطل ونصيحه امشوا من هنا»، نظر له «عبد الوهاب»

وأعطاه «الكارت» الخاص به، وقال في إحباط «ماشي يابرنس ..خلي ده معاك جايز تفكر» .

ألقى غانم ب «الكارت» داخل سيارته غير مكترثًا لنرحل عائدين إلى الفندق .. طوال الطريق كانت أفكارًا كثيرةً تطاردني ..لم أكن أملك إلا جرائمه لا أعلم ماذا أكتب فقد ضاعت ٢٤ ساعه أخرى، ولم يتبقى لنا سوى مثلها قبل العوده لنعلن الاستسلام.

«الله ..هي كانت ناقصاكوا انتو الجوز» التفتنا سريعًا لمصدر الصوت الذي بات مألوفًا والذي جاء من خلفنا عندما دخلنا إلى بهو الفندق.

«أبو الدهب بيه» قلناها في صوت واحد ونحن نرى باقي الضباط الذين تركناهم في القاهرة.

«خير ياباشا وصلتوا لحاجة» قلتها في حماس فابتسم بسخرية «إيه يافريدة هانم مفيش إزيك يا باشا...حمد الله عالسلامة ..وبمخك يعني لو وصلنا لحاجة هقولك»

امتعضت وأنا أقول له فكالعادة أنا وهوك «ناقر ونقير» «أه ياباشا لازم تقولي ..أنا صحفية ولازم تديني معلومه عشان الناس وعشان ال....» قاطعني بحدة «بس بس

وحيـاة اغـلي حاجـه عنـدك ياشـيخه مـش هتبقـي انتـي وكريـم بيـه .. مناقـرة وتفويـل ارحمـوني.»

رد كريـم مرتبـكا «إيـه ياباشـا بـس .. الحمـد لله الليلـة عدت أهـه ومفيـش حاجة حصلـت» .

تركنـا ورحـل غاضبًـا، تبادلنـا كلنـا النظـرات وذهبنـا إلى غرفنـا وكلنـا خاويـي الوِّفـاض محبطـين غـير أن الليلـه لم تـرد أن تمـضي دون تصديـق لنبـوءة الرائـد كريـم فقبـل منتصـف الليـل دوَّى صـوت الرصـاص لنسـتفيق عـلى قيـام « السـفاح» بإصابـة كمـين متحـرك للشرطـه حـاول مطاردتـه وأن ثمـة مـلازم أول وفـرد شرطـة مفقوديـن لتقـوم « الدنيـا» دون أن تقعـد.

أيقـظ الضبـاط «أبـو الدهـب» الـذي خـرج هرعًـا فيـما كان يتـوارى منـه « كريـم» إلا أنـه نظـر لـه «منـور يـا كريـم بيـه .. الليلـة عـدت ياباشـا .. أهـي معدتـش ياخويا..تفويلـك فقـر» .

***

الفصل السادس

الفرصة

كتبنا ماحدث وأرسلنا عبر الإيميل للجريدة وطالبناهم بمد المهلة إلا أنهم رفضوا ليتبقى من الوقت أقل من ١٢ ساعة ..علي ذات المقهى جلسنا أنا وعليوة نتناقش في إمكانية أخذنا لأجازة من رصيد أجازاتنا لنكمل مانحن فيه، استأذن عبد الوهاب تاركًا لي هاتفه الآخر ليتحدث مع زوجته التي أرسلت لها سلامًا عابرًا .. كنت أنظر إلى وجوه الناس الصامتة تمامًا والبارده والذين لا تتغير أقوالهم ولاحكاياهم متجاهلة للرقم الذي ظلَّ يرن على هاتف عبد الوهاب بإلحاح غير أن شيئًا ما جعلني أرد.

- ألو

- إنتي اسمك فريدة علم الدين

- إنت طالب مين

- أنا طالبك إنتي

- على تليفون زميلي؟

- هو أنا معايا غيره!

- مين؟

- أنا غانم

أخذتني الصدمة قليلاً قبل أن أرحب به فمعنى حديثه إنه سيدلي لي بمعلومة ما، وقبل أن أسأله حتى قال لي « اسمعي اللي هقولك عليه تنفذيه بالحرف الواحد ..هتيجي لوحدك دي شروط الملك ..لوحدك يا أستاذة».

ابتلعت ريقي مندهشه «ملك مين ..وليه لوحدي».

أضاف بحزم «الملك اللي بتسموه السفاح .. وافق يعمل معاكي إنتي بس حديث صحفي وأكد أنه إنتي بس من غير زميلك ومتجيبيش سيرة لحد بالمكالمه دي».

– يعني إيه لوحدي .. ومن غير زميلي ..يعني إيه الكلام ده ..وهو عرف منين إني فريدة علم الدين.

–هستناكي الساعه ٩ عند ساقيه مهران سلام

– استني .. استني بس

أغلق غانم الهاتف في وجهي وحاولت معاودة الاتصال به إلا أن الرقم أغلق ..«ماهذا وكيف ولماذا» كلها أسئلة دارت في عقلي دون إجابات غير أنها أصابتني بدهشة مخلوطة برعب.

« الواد مطلع عين مامته» قالها عبد الوهاب الذي انتبه لوجهي الممتقع لأحكي له ماحدث ليزداد هو الآخر دهشة

إلا أننا اتخذنا القرار بالعودة، فالمجازفة ستكون كبيرة فإذا نجح في اختطاف ضابط وفرد مثلما يُشاع فما باله بنا.

***

« يعني إيه ظابط وفرد يتخطفوا.. هيبه الداخلية فين.. انتو بتعملوا إيه هناك ..رايحين تتفسحوا .. مش قدها سيبوا الموضوع وارجعوا ونشوف غيركم» قالها مساعد الوزير في عصبيه غير أن « أبو الدهب» حاول جاهدًا امتصاص غضبه « يافندم الصبر بس احنا لسه واصلين يومها .. ولسه مش متأكدين إنهم اتخطفوا ماجايز مفقودين و...» قبل أن يكمل جملته قاطعه « اسمع يا مختار القصص دي لازم تخلص وقدامكم ٤٨ ساعه تشوفوا هتعملوا إيه لمّا تجيبوا بعضكوا وتيجو وتبقوا خذلتوني وتسيبوا الموضوع لفريق بحث تاني»، زفر أبو الدهب زفرة حارة والتفت خلفه ليرى قوات الأمن المركزي التي وصلت فابتسم وهو يرى الرائد مصطفي الرويعي تلميذه النجيب وقريبه وهو يترأس كتيبته الصغيرة في العمليات الخاصة.

***

رن الهاتف ..كان هو «غانم» ..نظرنا لبعضنا ونحن في محطة القطار نستعد للرحيل بعد أن قررنا عدم الرد فللمجازفة حدود ... ركبنا القطار الذي تحرك ومازال الهاتف يرن.. كثرة الاتصال جعلني أشك في مدى احتياجهم لصحفي كل هذا القدر ..باتت الأسئلة تتوالى والفضول يزداد .. انتهزت ذهاب « عليوة» للحديث مع زوجته فرددت على « غانم» «عاوز إيه اسمع إنت عاوز تعملي فخ ويبقى الملك بتاعك بيزود رهاينه .. لا وإيه صحفيين وظباط».

– اهدي يا أستاذة وهو هيعمل كده ليه ...إنتي فين بس الساعه ٩ وانا واقف من ساعتها عند الساقية ووقفتي كتير كده غلط .. الداخلية تقطرني.

– أحسن يارب يمسكوكوا .. وأنا في القطر مسافرة.

أغلقت الهاتف، كان بداخلي ضيق يكفي العالم غير أنني قررت الاستسلام للنوم.

***

ظلَّ فريق البحث يحاول جمع معلومات دون جدوى حقيقية وجُل ما عرفوه أن « السفاح» ليس صعيديًّا، وأنه قَدِم من القاهره منذ سنوات قليلة، وأنه يملك قدرًا وفيرًا من التعليم إذا ما قورن بأهالي القرى غير أنه ظل مبهمًا بملامح باهتة.

توقف القطار فجأة ليدخل ملثمين مسلحين .. جاء في بالنا أنهم إرهابيون وأننا قاب قوسين أو أدنى من موت محقق .. كان بينهم صوت مألوف اقترب مني وقال في حدة انزلي يا أستاذة .. اسمعي مني.. أكتر من ١٠ دقايق الداخلية هتبقى هنا وهيبقى الدم للركب ...انجدي الناس دي».. صرخ عبد الوهاب فيه « إنت مين وعاوز إيه» قال له « إنت تعرفني كويس» وصرخ «يلا يا أستاذه فريدة وليكي عندنا الأمان»، نظرت حولي إلى كل العيون المعلّقة بي وكأنها ترجوني بالنزول حقنا لدماء الجميع غير أن ألسنتها تخجل عن النطق من باب الإنسانية وعدم الأنانية ففورًا حملت حقيبتي وقررت النزول من القطار إلا أن عليوة حاول منعي غير أن الملثم حال بينه وبيني محاولاً طمأنته، أمَّا أنا فأدركت فور ركوبي سيارة الدفع الرباعي الفارهة أن من الملثم ذو الصوت المألوف هو «غانم».

***

« الحقني يا مختار بيه فريدة اتخطفت» قالها « عليوة» وهو يركب ترويسكل ليعود إلى الفندق ليمتقع وجه « أبو الدهب» الذي قال قي انفعال « هي ناقصة بس .. إيه اللي حصل فهمني... هو إيه اللي بيحصل معانا ده» .

خلع تلثيمته فيما ظلَّ الآخرين ملثمين، وقال في لطف زائد « منورة يا أستاذة فريدة»، الخوف كان يملؤني إلا أنني آثرت أن أخفيه فقلت له في عصبية « إنت إيه اللي عملته ده .. انتو شويه مجرمين وعصابة ومسيركو يا لا هتموتو يا لا هيتقبض عليكو.. هو فين عزت حنفي ولاغيره ..انتو عاوزين مني إيه».

ابتسم « غانم» على مضض وقال «لولا أن الملك مدي أوامر محدش يزعلك بكلمةكنت قلتلك كلام يضايقك .. واسكتي بقى كلها نص ساعة وهنوصل وهتعرفي عاوزينك في إيه.. يا خبر بفلوس بكرة يبقى ببلاش».

ليل سرمدي بقمر مختفي .. كانت ليلة غريبة وكأنها تنذر بأحداث أكثر غرابة .. صحراء موحشة بدروب مخيفه وتضاريس مرعبة كلما صعدنا نحو الجبل .. قلبي كاد يعتصر خوفًا إلا أنني حاولت إخفاء كل هذا وأنا أتذكر المقولة الشهيرة للخال الأبنودي « يا ولدي إن جاك الموت موت واقف».

***

استمع أبو الدهب لعليوة الذي كان مضطربًا متلعثما إلا أن ثمة سؤال واحد هو ذاته نفس السؤال الذي سيطر على عقلي فور دخولي مغارة الملك التي بدت فارهة « ليه أنا» .

ازدردت ريقي بصعوبة قبل أن يدخل « عاشور» ..كان قصيرًا وأعرجا وبشنب غليظ يغطي شفتيه تقريبًا والذي نظر لي بعيون وقحة مملوءة بالكراهية دون سبب ..كان ممسكًا بكوب عصير مثلج إلا أنني رفضت تناول شيئًا فخرج يتمتم « كلكو متعبين ..كلكو مفيش راحة معاكم»بلهجة سكندرية واضحة قبل أن يدخل ملثم ضخم بعباءة صعيدية يظهر عليه الهيبة ..وقتها أدركت أنه هو « ملك مملكة الجبل» الذي يهابه كبيرها قبل صغيرها .. فقال وهو يضحك « متقلقيش أصله بيكره البنات مرتاته التلاته خانوه وقتلهم وبيني وبينك عندهم حق ..هو أساسًا ميتحبش»، لم أتقبل دعابته الذي ظلَّ يضحك عليها وسألته في حزم « عاوز مني إيه...اشمعني أنا» ..رددتها أكثر من مرة .. أسئلتي ليست صعبة، لكنه كان يتفرسني بشكل أثار خوفي قبل أن أصرخ في وجهه «جايبني ليه» .

« أنـا بعـزك أوي وليكـي عنـدي جميل ولو همـوت فداكي بعد ماتكشـفي أنـا مـين عشـان تحققي سـبق صحفي معنديـش مانع» قالهـا في ود مبالـغ فيـه قبـل أن أزدرد ريقـي «إ نـت تعرفنـي»، فضحـك بشـدة وقـال» إنتـي تعرفينـي بشـكلي القديـم.. وانـا صعلـوك مسـواش .. دلوقتـي أنـا الملـك» .

بـات صوتـه هـو أيضًـا مألوفًـا بعـض الشـئ إلا أننـا وكأن الزمـن توقـف لبرهـة.

***

الفصل السابع

الملك

سمعت أنينًا قادمًا من خلفي من ذلك الممر المظلم نظرت إليه بشغف قبل أن أعيد نظري إليه وكأنه فهم سؤالي الذي يدور في عقلي «هل هو أنين أسراه» .. الحقيقة أن الحرب كانت شرسة وقتها بين الميري وأرباب السوابق من ناحية وبينهم وبين الإرهابيين من ناحية أخرى ..كانت لفترة عصيبة.

أعادت لذاكرة المصريين إرهاب التسعينات .. الفترة التي كان يمتعض أساتذتي في الجريدة مما عاشروها في التغطية الصحفية كلما ذكرناها لنطالبهم بأن يحكوا ذكرياتهم عنها فقد كنت وقتها طفلة لا أعي شيئًا ..أجابني بسهولة « آه هما.» .

قطّبت جبيني ناظرة له بنظرة « آه ياسفاح ..ياحرامي ..يا قتّال القتلة» والحقيقة أنه في أحايين كثيرة تكون نظرة العيون أشد بلاغة في تقديم رسائل الكراهية أو الحب .. ابتسم بعينيه فاستفزني فقلت له في عنف «إيه بقى .. هنقضيها نظرات .. هات من الأخر جايبني ليه ولما فيه صحفيين كتير حاولوا يقابلوك اشمعني اختارتني أنا».

ضحك ضحكة مستفزة وقال « أمك دعيالك بقي هنعترض.. أقولك أصل أنا من قرّاءك .. أه صحيح مبروك الرواية الجديدة.. اسمها« ليل «صح» وأخرجها من جيب جلبابه الصعيدي الواسع التي باتت وكانها ذاكرها وحفظ كل كلمة، بل كل حرف منها قبل أن يفتح صفحتها الأولى مخرجًا قلمه الحبر الباهظ الثمن وقال في رقة، «خدي امضيلي»، بعناد قلت له «لا لا»، تغيرت رقة عيناه إلى غضب بالغ واقترب قليلاً فيما تسمرت مكاني أملاً في ألا أظهر أمامه أنني مرتعبة فزجر «ليه مش قد المقام؟!» فرددت عليه فورًا «عاوزني أمضي للمجرمين والقلم ده بيكتب لل».

قاطعني بحد « أنا كمان برئ واتظلمت.. أنا محدش نصفني» أضاف وهو يضحك بسخرية « تقدري تقولي جعلوني مجرمًا»

امتقع وجهي وأنا أنظر لما يظهر من وجهه الذي خبّأته التلثيمة .. عيناه وكأني رأيتها قبل سابق ؛ ثمة ألفه بيننا، وكأنه قرأ ما في خيالي فأزاحها رويدًا رويدًا.

***

« يعنـي إيـه صحفيـة تتخطـف .. هـي كانـت ناقصـة .. شـوفولي وسـيط بينـا وبينـه نعـرف نتفـاوض معـاه ولانشـوف هنعمـل إيـه.. مـا احنـا مـش هنقعـد كـده زي الولايـا ومـش عارفـين نـرد عالقيـادة في القاهـرة» قالهـا بعصبيـة لرجالـه الذيـن تلعثمـوا فيـما ألقـى سـيجارته التـي كان ينفـث دخانهـا بعصبيـة وكأنـه يخـرج غلـه فيهـا، مـن بعيـد رأى عبـد الوهـاب جالسًـا واضعًـا يـده عـلى رأسـه، مـن يـراه يـرى فعـلا أنـه كان يحمـل همـوم العـالم ؛ وضـع يـده يربـت عـلى كتفـه قـال لـه في نـبرة حانيـة بعـض الشـئ «هنلاقيهـا وهترجـع إن شـاء الله»، فيـما نكـس رفيـق الكفـاح وصديـق المهنـة الشـائكة رأسـه « فريـدة عمرهـا ماكانـت زميلتـي .. فريـدة صاحبـي واخويـا . . أخويـا مـش أختـي حتـي.. فاهمنـي يافنـدم»، نظـر لـه أبـو الدهـب نظـرة طويلـة ربـما عـبّرت عـن ألمـه هـو شـخصيًّا قبـل أن يديـر عينـه إلى قمـم الجبـال حيـث يسـكن الشـيطان إحداهـا ... جبـال بكـر صعبـة الـدروب والتضاريـس وهينـة المداخـل عصيّـة المخـارج فالداخـل إليهـا لـو أنـه لا ينتمـي لسـكانها لبـات مفقـودًا لا محالـة.

***

« شـفيق» نطقتهـا في ذعـر ..أصابتنـي الصدمـة بقشـعريرة، فيـما ابتسـم هـو ابتسـامة طيبـة لا تليـق مـع الأحـداث.

– ليه كده ؟؟

– أنـا رحـت التربية والتعليم عشـان يرجعـوني ورفضوا رغم الـبراءة .. الـبراءة معملتليـش حاجة يا أسـتاذة فريـدة ..البرئ في بلدنـا بعـد إهانـات سـنين مـن مجتمـع مبيترحمـش ليه لا هـو ولا عيلتـه.. بيخـرج يتقاله معلش وبـس كده ..يمكن إنتـي الوحيدة الـلي عملتيلي حاجـة عدلة.

– إنت بتقول إيه؟..أنا مش مصدقة اللي أنا شايفاه ده؟

– ليه..أنـا عيلتـي اتدمـرت .. خرجـت مـن السـجن رحـت لمـراتي الـلي رفعـت عليـه قضيـة طـلاق بعـد أول سـنتين لقيتهـا اتجـوزت واحـد تـاني .. بنتـي ماتـت في حادثـة عربيـة محضرتـش عزاهـا، وأمي ماتت من الحسرة وبرده محضرتـش عزاها، واخويا مـات مجنـون في السـجن متبقاليش غـير مصطفـى كان لازم أخده واهـرب واعيـش حيـاة تانيـة بعد مـا قتلـت أمـه وجوزها.

– قتلت اييييه؟

-أيوا قتلتها ..خاينة وقليلة الأصل ..وخدت ابني اللي داق الذل من جوز أمه وهربت ..أمال أنا طلعت هنا إزاي ؟؟

شعرت بدوار غريب، كيف تحوّلت من شخص طيب إلى شيطان هكذا ياشفيق، كيف حللت لنفسك دماء شريكة العمر لمجرد أنها لم تطق حياتها وحيدة دون مصدر دخل في مجتمع لا يرحم ووسط يأس بخروجك مما أنت فيه، لما كل هذا، أخرجني من شرودي صوته « المهم أنا لما قالولي إني في صحفيه بنت بتدور على طريقه تعمل معايا حوار قلت يبقي أكيد إنتي وطلبت منهم يوصوفوهالي فقالولي هنصورهالك بالموبايل وجابولي صورتك عالقهوه قلتلهم هعمل معاها حوار هي الوحيدة اللي هتبقي عارفه حكايتي وهتكتب عني بقلبها.»

نظرت إليه بغضب « أنا هطالب بإنهاء امبراطوريتك دي .. هطالب براسك يا شفيق .. إنت خلاص مبقتش برئ إنت بقيت مجرم كرهه وحقده هيحرقنا كلنا» .

تبدّلت ملامح وجهه غير أنه حاول السيطرة على غضبه، لا أعلم السر على صبره على كلامي القاسي هل هو عرفان بالجميل، الجميل أو الواجب الذي فعلته والآن أندم عليه.

سمعت أنّات قادمة من الغرفة الترابية المجاورة فنظرت له فابتسم وقال في نرجسية ممزوجة بطيبة « لو عاوزة تبصي عليهم بصي»»، تحركت سريعًا اتبع صوت الأنات لأجدهم النقيب والأمينين، كان مُصابًا بجرح في قدمه فيما كان ينظر لي بدهشة، اقتربت منهم قليلاً إلا أنه ظهر خلفي فجأة وأمرني بالعودة معه إلى مغارته الملكيه، كنت أرصد بعيني كل شئ ففي ضميري كنت أنتوي الإبلاغ عنه لو قدر لي الخروج من كهفه.

***

الفصل الثامن

الحِصار

« مش لاقين وسيط يافندم زي مايكون كلهم اختفوا» قالها النقيب إيهاب لأبي الدهب الذي امتقع وجهه، وما كان رده سوى بحصار الجبل بقطع كل الطرق المؤدية بينه وبين القرى، في قرارة نفسه، كان يعلم أنه قرار باهت فلن يستطيع منع تهريب المؤن إلى الكهوف، ولكنه أراد ببساطة أن يلفت نظر «السفاح» ليرسل رسالة ويبعث له بأخرى.

جلس عبد الوهاب يقلب في الأرشيف الصحفي الالكتروني حيث كان يرى اسمها واسمه ويحدثها قائلاً « يا فريدة مراتي على وش ولادة .. كنت بعند معاكي وبقولك مش هسمي البت فريدة .. طب دي حتى مراتي نفسها قالت هتسميها على اسمك ياشيخة .. إنتي أختي الوحيدة يا فريدة .. ليه كده.. كانت الأحداث بتطاردك مش إنتي اللي بتطارديها»

***

حكى لي شفيق عن جريمة قتله لطليقته وزوجها واختطافه لنجله مصطفى .. وكيف قابل « إبراهيم كافي» امبراطور الجبال والتقي معه بعد هروبه للصعيد وكيف

ساقه القدر لينقذه من موت محقق على يد ذراعه الأيمن الذي حاول خيانته ليحل محله في الجبال وكيف تحوَّل من ليله وضحاها عقب تصفية الأمن لإبراهيم بعد وشاية من عشيقته «صباح» التي عرفت أنه سيستبدلها بـ « ليالي» الصبية ذات الخامسة والعشرين ربيعًا التي كانت حديث أهالي القرية كونها متعلمة ومثقفة وأحبت ال « كافي» الذي ظلَّ يطاردها طوال خمس سنوات قبل أن ترضى بأن تخطب له بعد أن رفضت معظم شباب قريتها التي لم تجد منهم رجلاً مناسبًا فيما شرط عليها والدها لتأخذ الماجستير عليها أن تتزوج خاصة وأنها في هذا السن بالنسبة لبنات قريتها فهي في حكم « المعنسة» .

– هقولك إيه .. استدرجته وهو مكنش في شنب يجرؤ يبصله .. بس كيد النسا غلب كيد الرجال.

– وقتلت كام واحد بقى؟

– ابتسم في غيظ « قتلت كل ظالم قابلته وكل خاين حاول يغدر بأهل الجبل وخدت من الغني واديت الفقير .. أمال إيه كان لازم أسيطر وعشان أسيطر لازم شفيق القديم يموت خالص، وابقى وحش كبير».

–قصدك تبقى شيطان.

– ابتسم في طيبة غريبة « ولو يا ستي شيطان ..ده زمان مش محتاج ملايكة ..الملايكة فيه ملهاش مكان».

– وانت بقى حاسس بجميلي ناحيتك فأنا الوحيدة اللي بتتكلم معايا بالطيبة دي ؟

– تلعثم قليلاً وأضاف « أنا مفيش في حياتي ملايكة غيرك ولو هدفع عمري عشانك هدفعه.. ولو خيروني إنك تعيشي وأموت هختار أموت افتكري ده كويس».

نظرت له بدهشة « ياسلام كل ده عشان ساعدتك وخرجتك براءة .. تصدق إني بندم»

– أنا هستحمل منك أي كلام يافريدة ..القصة مش قصة براءة بس.

– لو ليه خاطر عندك ياشفيق متقتلهمش ..سيب النقيب والأمنا يمشوا.

– خاطرك غالي وهنفذ بس مش دلوقتي خليها بعد النشر.

مر وقت طويل وهو يحكي لي كيف حوّلته تلك السنوات تحولات جذرية كنت أخبره عن صديقه الذي عاش نفس ظروفه وتسامح مع المجتمع وافتتح مشروعًا صغيرًا وكبر

واعتبر أنه ماحدث له ابتلاء سيؤجر من الله عليه والحقيقة أنه تحمّل مني الكثير. .ساعات طويلة لم أحسبها وانا أسجل حديثي معه قبل أن يخبرني بأنه حان وقت رحيلي لاكتشف أن النهار قد سطع بعد خروجي من مغارة داخل كهف داخل جبل كبير تقبع في ظلام لجي، ابتسمت وأنا أرى سيارة الدفع الرباعي التي ركبتها فأخيرًا سأتحرر، ثمة حزن كان في عيني ملك الجبال لا أعرف لما ..غير أنني لم أنشغل بتحليله فأخيرًا سأعود إلى دياري وورقي وقلمي بأسرار لا يعرفها غيري؛ والحقيقه أن الشغف جعلني أكتب الكثير وأنا عنده على اللاب توب الذي كان قي حقيبتي الصغيرة .

انطلقت السيارة وكنت أنهي الحوار الذي عنونته بـ « سفاح جبال بكر» في انتظار أي التقاط للشبكه لأبعث به عبر الإيميل للجريدة حتى يظهر على الموقع وهو ماحدث فعلاً ففور وصوله تم النشر ليفاجأ به أبو الدهب وعليوة الذي كان منتشيًا بصديقته التي حققت انتصارًا صحفيًا من العيار ثقيل والأهم أنها بخير وفي طريق العودة، هو أيضًا هاله أن السفاح كان شفيق الذي دافعنا عنه، ولكننا كمجتمع لم ندافع عن كينونته فتحوّل وإن لم يكن هذا مبررًا له إلا شيطان يقتل ويسرق .

***

شعرت بارتباك غريب واتصالات بين قائد السيارة والسفاح انتهت بإعطائي الهاتف حيث قال لي إن الشرطه تحاصر الطريق الذي سيظهر بعد عدة كيلو مترات وإن عليَّ أن أترجل وأن أرفع يدي مستسلمة حتى لايطلقوا النار وأنه يؤمنني إلى حد كبير، ترجلت فعلاً وظللت أخطوا الأمتار حتى ظهروا.

***

كان عبد الحي يراقب الطرق ؛ كان يعلم أنه سوف يرسلني برسالة ما إليه، عندما علم انه « شفيق» اطمأن قليلا رغم حالة الارتباك التي بداخله وبمجرد ظهوري أمر قواته بعدم إطلاق الرصاص فالقادم صديق حميم وليس عدو أخيرًا وسط حالة من الدهشة التي أصابت بعض الضباط الذين كانوا يروني لأول مرة فالكثيرون كانت لديهم مخيلات أمّا انني امرأة تعدت الخمسين مثلا أو أنني قبيحة الشكل والمظهر .. بين إعجاب واستحسان وانتقادات تلومني لتعريض نفسي للمخاطر كنت أواجه نظراتهم إلا أن نظرة احترام وشجاعة لعملنا الصحفي انتصرت في النهاية.

الفصل التاسع

رسالة بالدم

نفث دخان سيجارته وابتسم ابتسامة غريبة لم أتوقعها ولم أستطع أن أفسرها وأنا أدخل إلى ثكنته التي جهزوها له، وقال في هدوء «طبعًا مش هسالك هو مين ولافين ولا إيه، منا قريت زيي زي غيري عالموقع مقدرتيش تصبري»، ابتسمت في خبث فيما بادلني هو نفس الابتسامة الخبيثة، ثم قرّر التحدث بجدية « القدر مصر يجمعنا بيه يا فريدة مش كده وكأنه لسه بيقولنا لسه الحساب مخلصش « قبل أن انطق قال في عجل» ولادنا شفتيهم أو سالتي عنهم.. أنا عارف ذكاءك أكيد منوهتيش عنهم في المقال عشان متديش أمل لأهاليهم لو عايشين وماتوا وعشان متهزيش الهيبة الميري» .

في العادة نكون أنا و «أبو الدهب» كناقر ونقير إلا أنني كنت أرى أننا في موقف نُحسد عليه، نعم أنا أتحدث هنا بصيغة الجمع فالحقيقة أي شئ يهدد الوطن الحياد فيه خيانة مثلما يقولون والصحافة مهنة وطنية بالدرجة الأولى .. أنا أعتز كجيل حالي وسابق وقادم بمهنتنا التي امتهنها المناضلون الحقيقون، فعلى مر التاريخ معظم زعماء الأمة اشتغلوا بها، سعد زغلول ومصطفي كامل وأنور السادات

وغيرهـم الكثيريـن .. الصحافة وطنيـة دون توجيـه أو إملاءات، تقويـم للحـكام وتنويـر وتبصـير، إيـمان متكامـل وعقيـدة بقدسـية الكلمـه فـالله أقسـم بالقلم ولم يقسـم بالسـيف، لا أعلم لمـا دار كل هـذا ببـالي لوهلـة فوجـدت نفسي أطمئنـه عـلى الفور « بخـير ومـش هيمسـهم أنـا باكدلـك ده»، ضحـك في سـخرية « فريـدة ده مبقـاش شـفيق الـواد الغلبـان بتـاع عنـبر الإعـدام ده بقـى قتّـال قتلـه، جبتـي التأكيـد ده كلـه منـين» تركـت مقعـدي وترجلـت لأتركـه لهمومـه « صدقنـي مـش هيلمسـهم ده وعـد بينـي وبينـه» اشرت لـه ورحلـت وانـا أكمـل « لـو احتجـت أسـاعدك في أي حاجـة غـير مكانـه فـين أنـا في الخدمـة لأنـه أكيـد أذكـى منـي ومنـك وابتـدى ينقـل نفسـه مـن المغـارة؛ لأنه عـارف إني مـش هسـكت وهدلكـم ببسـاطة وهرشـد عنـه» .

في طريقـي للخـروج مـن خيمتـه اصطدمـت بـه ،ضابـط برتبـة رائـد يرتـدي زي عمليـات الأمـن المركـزي وكان واضحًا أنـه قـادم مـن عمليـة مـا، لم يعتـذر، نظـر لي فقـط ودخـل، كنـت أشـعر بضيـق جعلنـي أتجاهـل الفكـرة أصـلاً فرحلـت وتركتـه دون عتـاب عـلى سـوء ذوقـه إلا أن تلـك العينـين كنـت قـد رأيتهـا قبـل سـابق.

***

في الجبل وقف الملك مع رجاله معطيًا أوامره بتغطية عيون النقيب والفردين بالأقمشه وظلَّ يصرخ بشكل مخيف بعد أن علم بوجود تحركات رصدت مكانه قبل أن يشد أجزاء بندقيته الآلية ويطلق رصاص خزانها وسط ذهول الجميع بعد أن أغرق الدم أرض المغارة.

***

في الصباح كانت القوات على أهبة الاستعداد وكنا أنا وعبد الوهاب كمراسلي الحرب الذي يرفض أبو الدهب وجودنا إلا أننا أصررنا ولأننا سئمنا من طريقته الفجة قررنا التواجد بطريقتنا نحن، بدا الاقتحام لثاني الجبال دون عنف تقريبًا من ناحية الملك ورجاله، نجح رجال أبو الدهب في اقتحام المغارة المخيفة قبل أن يصدر صوتًا أربك القوات ليصوبوا نحوه ليفاجأوا بجثث اثنين من رجال المللك الذي عملوا في تجنيدهم سرًا أخر يومين والحقيقه أنهما كانا أوفياء له فلم يخبروهما بأي شيء عنه إلا بعد النشر فدلوهما عن مكان المغارة تحديدًا أمَّا الحركة فكانت حركة أصدرها النقيب المحتجز والفردين مخافة أن يقتلوا بنيران صديقه، من بعيد كان المنظر مهيبًا، المغارة المظلمة إلا من شمعة تركها العدو وكأنه يعلم أنها ستنتهي قرب وصولهم، كان مكتوب على الحائط الحجري

« مـن أجـل الوعد يـا صاحبـة القلـم .. الداخلية كده تشـيلك ده جميـل كبير» .

تنهـد « أبـو الدهـب» تنهيـده كبـيره وأخـرج هاتفـه ليلتقـط الرسـالة المكتوبـة صـورة ورجالـه يفكـون الأسرى ويرحل وهو يتصـل ليخـبرني بـضرورة اللقـاء .. شـئ مـا طـرأ في عقـل ثعلب الداخليـة ربـما قـرّر أن نتشـارك أخـيرًا.

***

الفصل العاشر

الستائر

خلع نضارته الطبية في عصبية، نظرت له «مالك يا بني في إيه»، أشار للخبر العاجل الذي ظهر فجأة على بانر موقع الجريدة الخاص بنا كان يحمل عنوانًا يحمل تفاصيل مختصرة عن مقتل معاون مباحث أحد أقسام القاهرة أثناء تصدية صدفة لسيارة اشتبه بها وتبيّن أن بها إرهابيين وقيل إنهم هربوا باتجاه طرق الصعيد بحسب تكهنات البعض، نظرت بغضب وعقبت « مش هنخلص بقى» رد عبد الوهاب « لا بصي في إيد خفية هتفضل كده مشعللة الدنيا .. إيد ليها غرض وبتكره مصر .. هتفضل تمول وتحرض بس عارفه المشكلة الكبيرة ولا تمويل ولاتحريض المشكلة الأكبر العيال دي بتجري تستخبى فين»، كنا نسمع عن « الستاير»، هكذا كانوا يطلقون عليهم والحقيقة أن ماكنا نسمعه أيضًا أن أثمانهم خيالية نظير الخدمات التي يقدمونها، أو بالأحرى الخدمة الوحيدة التي لم تكن سوى إخفاء الإرهابيين من أعين الشرطة عادة مابعد انتهاء العمليات التي يكونون لا يعرفون عنها شيئًا والتي ربما يبغضونها هم الآخرون، في الموعد المحدد للقاء أبو الدهب كنت أنهي اتصالي بعلياء زميلتنا التي آثرت الحياة الاجتماعية وأصبحت معيدة بكلية الآداب قسم الإعلام حيث طلبنا منها بعض المراجع

بعـد أن نوينـا أنـا وعليـوة التفـرغ للماجسـتير بعـد ظهـور نتيجـة الدبلومـة ونجاحنـا في امتحاناتهـا، قلنـا إنهـا فرصـة بعـد انتهـاء كل هـذا الصخـب أن نأخـذ أجـازة معقولـة نريـح فيهـا عقولنـا ولـو قليـلاً، قالـت لي في نهايـة المكالمـة «معلـش خـدي الزنّـان ده عـمال يـزن عـاوز يكلمـك بيقـول وحشـتيه» .

– مين ؟

– إزيـك يـا دكتـوره مقدمًا .. هدكـترك أهه مـع إني مبقولهاش لعمتـي، فرحـت كثـيرًا بصوتـه ف « حذيفـه» كان طفـلاً رائعًـا أو هكـذا كان وقتهـا، كان محـور اهتمامنـا أنـا و«عمتـه» في ذهابنا وإيابنـا للكليـة، كنـا ندلـل حذيفـة بالحلـوى ولم يكـن خلقـه فاسـدًا كان طفـلاً وديعًـا رقيقًـا لطيفًـا يدخـل قلبـك بمجـرد أن تـراه ولم يكـن غريبًـا أن يكـون مُتفوقـا حاصـدا للمراكـز الأولي عـلى مسـتوى محافظتـه فكنـا نناديـه بـال «الفلتـه» فيـما كانـت والدتـه الحاجـة «اعتـماد» والدتـه، تخـاف عليـه مـن عيوننـا وعيـون النـاس فكنـا نلمحهـا تقـرأ المعوذتـين في سرهـا فيـما نضحـك في سرنـا فلـم نغضـب يومًـا منهـا ؛ كـبر « حذيفـة» كثـيرًا الآن يقـارب ال١٨ عامـا وبـات شـابًا وسـيمًا ويافعًـا ورياضيًـا ومتفوقًـا، في أخـر مـرة كنـت في زيـارة قصـيرة لعليـاء كنـت أرى الإعجـاب في نظـرات بنـات جيرانـه فكنا نتنـدر عليه ونضايقـه حتـى تحمـر وجنتـاه وكنـت أسـمع مديـح الكثيريـن لوالـده المهنـدس أحمـد بأنهـم يتمنـون أن يكـون أولادهـم مثله.

أغلقت الهاتف مع ظهور رقم عبد الوهاب على ال«ويتنج»، طوال الطريق كنا نتحدث عن السبب الذي جعل أبو الدهب يطلب تواجدي رغم طريقته الفظة التي تعامل بها من منطلق الخوف علينا أثناء المداهمات ،كان يريد أن يبعدنا بأية طريقة.

«مش غريبة إنه فجأة بقي عاوزنا أو بالأدق عاوزك بخصوص القضية اللي أصلاً عاوز يبعدنا عنها وصدر تقريبًا قرار بحظر النشر فيها بعد تحقيقك إلا في شوية تطورات»

كانت نفس الأسئلة تدور داخلي أيضًا دون إجابات مقنعة سوى إجابة اختلقتها بأنه ربما أراد أن يعرف بعض الأشياء عن شفيق مثلاً أو أن يعطيني الرهان بعد أن تسرّبت الأنباء بأن السفاح نفذ وعده ولم يقتل أسرى الميري، وهي الإجابات التي أعطيتها لعبد الوهاب لنبتلعها على مضض لأنهى جدلنا ب» يا خبر بفلوس بكرة يبقي ببلاش.»

***

مغارة أكبر وأكثر تجهيزًا وصل إليها بعد طرق وعرة وأكثر صعوبة قاد فيها جيشه الصغير من المطاريد وأرباب السوابق، كل شئ كان مُعد، لم يعد شفيق كالسابق، في انتظاره كانت «سمية» مع « مصطفي» ابنه الذي ما أن رآه

حتى ارتمى في أحضانه، « سمية» هي حب خالص، حب الامتلاك، جارة شفيق منذ الصغر والتي أحبته كثيرًا حبًا من طرف واحد ليكسر قلبها ويتزوج وينجب ويتركها وحيدة لتتزوج وتنجب قبل أشهر من إلقاء القبض عليه بعد أن تعدت الثلاثين ولاهتمامها بكل تفاصيل قضيته ولاكتشاف زوجها أنها كانت تدخر من أمواله لتتعاقد مع أحد المحامين الكبار لأجله طلقها بعد أن أحدث لها فضيحة في الحارة جعلتها تغادرها دون رجعة إلا بعد عودته بريئًا لتساهم في إغارة قلبه على زوجته وترحل معه عقب قتلها رابطة مصيرها بمصيره، لم يحبها شفيق أبدًا إنما رأى فيها الشخص الوحيد من ماضيه الذي وقف أو حاول الوقوف إلى جواره أو بالأدق أحبه وقت انطفائه .. أحبه وقتما كرهه العالم لذا كان يثق بها فأوكل إليها تربية مصطفى، أمَّا هي فكانت لديها آمال عريضة بأن يحبها ويتزوج منها.

« نورت المكان» قالتها وهي تبتسم ابتسامه تحاول فيها تخبئة فرحتها برؤيته فقد باعدت بينهما أسابيعًا منذ قدوم حملة الداخلية واتخاذه أحد الجبال بيوتًا له ولبعض رجاله لإيهامهم بأنه مكانه الأصلي، ابتسم لها خجلاً فقد كان شفيق يخجل من مشاعرها نحوه.

***

الفصل الحادي عشر

تلميذ أبو الدهب

ابتسم عندما رآني بصحبة عبد الوهاب وقال مداعبًا « إيه يافريدة هنخطفك .. مبتجيش غير وانتي معاكي محرم»، تبادلنا الضحك قبل أن يدخل ضابط عمليات خاصة ملثم ليدقق النظر لدقيقة وأنا أيضًا قبل أن يقول له العقيد أبو الدهب «اقعد يامصطفى»

اعتدل في مقعده وقال بشكل جدي « فريدة عاوز أوريكي حاجه» واخرج هاتفه ليريني رسالة سفاح الجبال التي تركها بالدم على جدران المغارة، الحقيقة أن شئ ما ارضى غروري فقلت بثقه « لحد امتي هتفضل تخسر الرهانات يا سيادة العقيد» وابتسمت فابتسم وأغلق هاتفه وقال «اللي هيتقال ده مينفعش يخرج برانا إحنا الأربعه ومجموعة العمليات طبعًا ..أعرفك مصطفى الرويعي تلميذي».

فنظر إليه فوجده يتفحصني فقال له بشكل عصبي مضحك «شيل يابني التلثيمة دي، خليها تعرف تشوفك، هي هتتعرف على شبح».

أزاح الرويعي قناعة فشهقت لتدارك الموقف مرحبة به، فرحّب بي فيما شعر أبو الدهب بالدهشة وظلت عيناه تتحرك ذهابًا وإيابًا بيننا حتى أنهى حديثنا بطريقته

المضحكة الجادة « ماخلاص بقي جايين تسلموا على بعض هنا» ونظر لي «مبفاجئكيش خالص أنا .. بتهيألي ناقص تعرفي المسجلين أكتر مني» فهممت أن أشرح له قصة معرفتي بالرويعي ليلة مهاجمة الأقسام إبان ثورة يناير إلا أنه قاطعني ووجه له السؤال « يعني بقالنا ساعة يارويعي بيه في سيرة الأستاذة فريدة مقولتليش أن في سابق معرفه» فأجاب متلعثمًا «لا يا باشا أصل مجتش فرصة وبعدين ..» قاطعه وقال «حسابنا بعدين خلونا في الموضوع وعمومًا كويس انكو تعرفوا بعض لأن المهمة هتبقى مشتركة»

رد عبد الوهاب « مهمة»

أشعل أبو الدهب سيجارته وارتد عائدًا إلى مقعده وقال « إحنا عاوزينك تساعدينا يافريدة، باختصار إنتي هتكوني الطعم اللي هنجيب بيه شفيق» .

***

وضع قطعة من الأرز المعمر في فمه مع قطعة لحم كبيرة فيما كانت تنظر إليه، قالت له بحذر «الواد حسن حكالي عالبت الصحفية اللي جبتها .. مش دي اللي كانت طلعتك براءة .. بتعزها إنت أوي صح» .

نظـر إليهـا ولم يعقـب فأكلمـت «كـده أحسـن، أهـه ادتلهـا سـبق عشـان محـدش يقالـه عنـدك جميلـة، بـس نبعـد عـن وشـها بقـى أصـلاً دي جورنالجيـة ومـش هييجـي مـن وراهـا غـير وجـع الدمـاغ و»

تـرك الطعـام وقاطعهـا « مـن إمتـى وانـت ليكـي في الشـغل، خليكـي في الطبيـخ ومصطفـى بس»..نظـرت لـه بخبـث « لا يـا نـن عينـي .. ليّـه في الطبيـخ ومصطفـى وفيـك» ألقـى كـوب المـاء بعنـف عـلى الأرض «اسـمعي يـا سـمية للمـرة المليـون إحنـا هنـا مـع بعـض واحطـك فـوق دماغـي، لكـن ملكيـش فيـه سـنتيمتر واحـد فاهمـة ولا لأ» انفعلـت «أنـا اطلقـت عشـانك واتفضحـت بسـببك»، ارتـدى عباءتـه بعصبيـة «أنـا خدتلـك حقـك قلتيـلي سـاعدني أقتـل طليقـي الـلي فضحنـي، وقـال إنـه سـتر عليَّـا يـوم الجواز،وقـال إني غلطـت معـاك ورحـت قتلتهولـك بعـد مـا خدرتيـه .. إنتـي كـده ملكيـش عنـدي جمايـل خلينـا أصحـاب يابنـت النـاس وعيـشي ملنـاش إلا بعـض ..تحـت عشـماوي مسـتنينا».

أضافـت في انفعـال «كل ده عشـان جبـت سـيرة سـت الأسـتاذة زفتـه»

هـوى الملـك عـلى وجههـا بصفعـة مزقـت قلبهـا وخـرج، أيقنـت سـميه وقتهـا أن ثمـة شـئ مـا يحـدث، ثمـة شـكوك يحدثهـا بهـا قلبهـا تميـل لليقـين.

***

شرح « أبـو الدهـب « كيـف سيسـتخدمني طعـمًا فيـما ظللـت أحـدق بـه، سـأله عبـد الوهـاب «وليـه يعنـي مـش هيضمـن أن فريـدة هتبقـى عملالـه كمـين» فأجـاب بسرعـة «لأنـه اتاكـد إن مـش هـي الـلي قالـت المـرة الـلي فاتـت بدليـل إنـه قتـل الراجلـين بتوعـه الـلي خنـوه» ،ضحكـت « إيـه الخيـال الواسـع ده يـا سـيادة العقيـد، أنـا مكنتـش عارفـه إنـك عـاوز تخلـص منـي بسرعـة أوي كـده، إنـت متخيـل إن تأثيري واسـع عـلى شـفيق أوي كـده ليه؟..عشـان بعتـلي رسـالة ... ده بيقـولي إنـه نفـذ وعـده، باختصـار ملكيـش عنـدي جمايـل وزي ماقلتـلي قبـل كـده شـفيق القديـم حاجـه وشـفيق بتـاع دلوقتـي حاجـه تانيـه و»

قاطعنـي « الرويعـي» «هـو فعـلاً القديـم غيرالجديـد ... مختلـف في كل حاجـة إلا حاجـة واحـدة»

فنظرت له بامتعاض « اللي هي إيه دي.»

فقال بثقة:«إنتي».

نظـرت تلقائيًـا لأبي الدهـب وبارتبـاك للآخـر، ردَّدت بسرعـة «إيـه أنـا دي ياسـيادة الرائـد»، فـرد بثقـة « آه إنتـي ... بقولـك إيـه تراهنينـي إن أنـا لـو بعتنالـه طبقًـا للخطـة إنـك عـاوزة تقابليـه هيقبـل يقابلـك ومـش بعيـد ينزلـك مـن الجبـل .. سـمعت إنـك عـلى طـول بتكسـبي الرهانـات مـن مختـار بيـه، جـربي تراهنينـي بقـى» شـعرت بقلـة تهذيـب أو تجـاوز إربـك الـكل فحـاول العقيـد مختـار تلافيـه فقـال « طبيعـي بحكـم إنك الـلي سـاعدتيه في وقـت هـو كان شـايف إن كل النـاس أشرار وان إنتـي الـلي طلعتيـه بـراءة مبيثقـش في حـد غـيرك».

نظـرت « للرويعـي» نظـرة طويلـة شـعرت إنني لا أستسـيغه، غـير أننـي قـررت أن أرحـل عـلى أن أفكـر فيـما قالـه أبـو الدهـب وأعـاود الـرد وسـط رفـض تـام مـن عبـد الوهـاب الـذي رفـض أن يتـم ترشـيدنا، نظـر لـه « إيـه يابنـي الدبـش ده .. بتقولهـا كـده وش» فـرد بـبرود «يـا باشـا هـي لازم تفهـم إن الـواد ده مبيتعاملـش معاهـا معاملـة طبيعيـة» قاطعـه « لا فالـح، وانـا عاجـز أقولهـا بـت يافريـدة الـواد السـفاح ده بيحبـك ومتعلـق بيكـي والهـوي غـلاب وهيقـع عـلى بـوزه وهنكـرر حكايـة سـفاح الصعيـد بتاعـة فيلـم فريـد شـوقي وصحفيـة أخبـار اليـوم .. وبعديـن بتقولهـا بتكسـبي الرهانـات مـن مختـار بيـه هتطلـع أشـطر منـي يعنـي ولا إيـه» تلعثـم الرويعـي فقـال

«يا باشا أنا كنت بحاول أكون لطيف و» قاطعه «يا بني في حاجة اسمها ذوق، شياكة، فريدة دي فريدة وهي فريدة فعلا» فقال الرويعي بعفوية «عارف يافندم»، نظر له أبو الدهب نظرة طويلة أربكته فاستأذن بالانصراف ومضى.

***

ابتسم وهو يرى جزءًا صغيرًا من مغارة ملحقة بمغارته تم إنجازه، كل سكان الجبال كانوا يتوقون لمعرفة من سيسكن ملحق المغارة خاصة أنهم كانوا يعتقدون أن « الملك» يعده لابنه إلا أن كل هذا تبدد بتخصيص ملحق آخر لا يقل رفاهية عنه له هو و « سمية» التي ظلت يعتصر قلبها ألمًا طوال ذلك النهار حتى أتى ملكها وطيب خاطرها بكلمتين ازهرت بهما روحها من جديد، غير أنها لم تبدد شكوكها بأن هناك زهرة لحب غريب تنبت في قلب سلطانها ويداريها عن الجميع.

اقترب منه ذراعه الأيمن وهو يقف في ملحق المغارة «مش ناوي تقولنا مين اللي جاي ياملك» قال في ثقة «مش هيتأخر أسبوع .. متسألش كتير» .

***

الفصل الثاني عشر

في بيتنا إرهابي

طـوال الطريـق كانـت كلـمات الرويعـي تطـارد تفكـيري، لم أنتبـه لـكل اعتراضـات عليوة التـي ظلَّ يناقشـني فيهـا من طرف واحـد، « تليفونـك بـيرن» قالهـا عبـد الوهـاب ليخرجنـي مـن شرودي، ظهـر اسـم « علياء» والحقيقـة لم أرد الحديـث مـع أي شـخص إلا أن إصرارهـا كان غريبًـا فـرددت لأفجـع « حذيفـة مـات»، هكـذا قالـت وهي تضحـك في هسـتيريه مخيفـة وأغلقت الهاتـف، حاولنا الاتصال مـرارًا وتكرارًا دون جـدوى، والحقيقه أننـا اعتقدنـا أنهـا تمـزح في بـادئ الأمـر لـولا ذلـك البيـان الذي صـدر بصـورة لشـاب أو بالأحـرى مراهـق حاول طعـن شرطي عنـد كنيسـة وتمـت تصفيته وكانـت الصـورة ل «حذيفـة» !!

***

صدمـة مرعبـة أصابتنـا، قطعنـا تذكرتـين وتوجهنـا إلى علياء طـوال الطريـق، كاد عقـلي أن يُصـاب بالجنـون مـا الـذي يجعـل شـابًا كهـذا يتحـول إلى إرهابيًـا وأن تنتهـي حياتـه بهـذا الشـكل المأسـاوي، والحقيقـه أن الصدمـة والحسرة لم تكـن لدينـا فقـط بـل كانـت عـلى وجـوه كل مـن في الشـارع، الجـيران بـين خائف ومشـفق عـلى أهلـه وشـامت وحاقـد مثـل «الدكتـور زيـاد»

صاحب العقار الذي كان لديه ولد في عمر حذيفه يشتكي من سلوكه الجميع مابين انحراف ومضايقات لاحدود لها وقت وصولنا طرق الباب الذي كان مفتوحًا ليقول بصوت عال « ال واحنا اللي كنا بنقول ياريت ولادنا يبقوا زيه.. الشر بره وبعيد..أخر الشهر تسيب الشقه يا باشهمندس مش عاوزين شبهة»، قاطعه عبدالوهاب في عنف «ده بدل ماتقله إيه اللي خطف حذيفة من وسطنا لتصحى الصبح متلاقيش ابنك إنت كمان..عمومًا مش وقته»، كان وجه علياء شاحبًا فيما كان والد حذيفة بوجه مسود، أمَّا والدته فافترشت الأرض محتضنة صورته وكأنها لاتصدق ماحدث، احتضنت صديقتي فبكت بحرقه، كانت علياء تفهم طلبي بالدخول إلى غرفته وتتفهم جيدًا مهام عملنا التنويري ... بحثنا سويًّا فيما تركه الأمن لنفهم من سرق حذيفه من بيننا وكيف ؟؟ .. والحقيقه أننا استغرقنا ساعات طويله أنا وعلياء وعليوة لنقر في النهاية أننا أمام مشكلة جيل كامل لم تنتج له أفلام كرتونية تعبرعن هويته فسيطر عليه المستورد الذي جعل من اللص بطلاً ومن ضابط الشرطه مرتشيًّا وفاسدًا والذي عرضه لمشاهد اباحية أو عنيفه أو دموية وجدنا عالم مفتوح من الإنترنت بشبكة عنكبوتية لم

نعـرف مـن يحـدث فيهـا أبناءنـا أو ماهيـة الأفـكار التـي يتـم الترويـج لهـا، لا يوجـد برامـج تلفزيونيـة هادفـة والمطـروح أفـلام ومسلسـلات هابطـة تشـجع عـلى البلطجـة والتحـرش، الجيـل أمَّـا يمينًـا متشـددًا أو يسـارًا منحرفًـا فسـن الجريمـة قـد هبـط إلى العـشر سـنوات فهـم يقلـدون فيسرقـون ويقتلـون ويحملـون السـلاح الأبيـض ويتعاطـون المخـدرات إضافـة إلى اسـتخدامهم كديلـرات لإبعـاد الشـبهات عنهـم، فئـات كبـيرة مـن الجيـل الحـالي تنتمـي لإمـا لهـذا أو ذاك.

« أطفالنـا بين مطرقة الإرهاب وسـندان الانحـراف ..حتى لا يضيـع حذيفـة جديـد» هكـذا كان عنـوان الموضوع الـذي أنهيناه وأرسـلناه لنـدق ناقـوس الخطـر حـول ملـف الطفولـة في مـصر قبـل أن نـزدرد ريقنـا بصعوبة وكأننـا نتجرع المـرارة، رقم غريب يلـح بالاتصـال منذ مـدة، كان آخر مـن أتوقعه في هـذا التوقيت.

***

الفصل الثالث عشر

الرويعي

«ممكـن أعـرف إنتـي فين»قالهـا بعصبيـة شـديدة، أبعـدت الهاتـف عـن أذني ونظـرت مـرة أخـرى للرقـم الـذي كان غريبًـا فـرددت بضيـق « مـين الـلي بيكلـم كـده ..إنـت مـين»

- وليكي عين تكلمي

-أفندم؟

- إنت فين يا فريدة هانم؟

- إنت مين؟

- مصطفي الرويعي معاكي يافندم

- أنا ف

صمتـت قليـلاً، ثمـة غيـظ انتابنـي بعـد أن تذكـرت طريقتـه الفظـة صبـاح اليـوم فـرددت بعصبيـة «وانـت مالـك يـا سـيادة الرائـد .. أنـا مقبـوض عليـه ولا إيـه»، فأجـاب بعصبيـة «لا أنـا مـش حمـل دلـع البنـات ده .. إحنـا في مأموريـة ولازم تنتهـي»، جـززت عـلى أسـناني غضبًـا واتخـذت القـرار بإغـلاق الهاتـف تمامًـا فقلـت بصـوتٍ عـالٍ «طالـع لأسـتاذك بالظبـط نفـس الطريقـة».

« هـو طالعـلي فعـلاً بـس مقلتليـش طالعـلي في إيـه» قالهـا أبو الدهـب مـن خلفـي لالتفـت لأجـده، صمـت ظـل بيننـا لدقائق قبـل أن انفعـل «، هـو إيـه بقـي ..أنـا متراقبـة بقـى ..اسـمع يـا باشـا كـده ميصحـش ومـش هينفـع سـامعني» قاطعنـي بحـدة « بـس بـس بـس بوتوجـاز وهيفرقـع فينـا .. ولا حـد مراقبـك ولاحاجـة الـلي كان المفـروض يأمـن عليكـي متكـدر هنـاك عشـان بعتنـا نجيبـك قبـل مـا اسـافر ملقناكيـش، أنـا جـاي هنـا عنـدي شـغل تـاني وراجـع وانـا طالـع لقيـت عربيـة عبـد الوهـاب فسـألت قالـولي إنكـم أصحـاب الآنسـة عليًّـا وده وفـر كتـير برده..اسـمعي يـا فريـده في معلومـات مؤكـدة أن شـفيق سـتارة كبـيرة .. بيتهيـألي ده يخليكـي تفكـري بسرعـة.»

رددت عليـه في خنـق طفـولي « أنـا مـش هشـتغل مـع مصطفـي بيـه ده يـا باشـا»، ابتسـم في سـخرية « إحنا بنقـي خيار يـا بنتـي ثـم الـواد ده خليفتـي في الملاعـب، إلا مقلتليـش كنتـي بتقـولي وانـا داخـل شـبهي في إيـه؟»، تلعثمـت فقـررت تغيـير الموضـوع «أنـا هرجـع بعـد بكره»،فقاطعـي بحـدة « لا انهـاردة بالليـل وافتحـي تليفونـك كفايـة الـلي عملتيـه في مصطفـي انهـاردة»، نظـرت لـه بدهشـه»وانت عرفـت منـين يـا باشـا إني قفلـت تليفـوني» ضحـك بهسـتيريا مسـتفزة « عيـب يـا فريـدة

ياعلم الدين ده أنا حافظك اللي ربى خير من اللي اشترى ثم هو دبش شويه بس واد جدع وأصيل شبه أستاذة ها»، ابتسمت وتنهدت فيما دلف عليوة إلى الحجرة التي تركونا فيها بمفردنا ليخبر أبي الدهب أن ضابطا يريده بالخارج فيما أخبرته بأننا سنعود إلى الصعيد اليوم فقلبي يحدثني بأن أحداثًا خيالية ستحدث.

***

وصلنا إلى الأوتيل الصغير الذي نسكن فيه فوجدنا «الرويعي» في انتظارنا، قالي لي عليوة أن أكون لطيفة معه فالرجل اتهمته قياداته بالتقصير لرحيلنا دون إذنه بعد أن بتنا جزءًا من الخطة.

- «مساء الخير يا مصطفى بيه»، نظر بغيظ «مساء النور يا أستاذ عبد الوهاب هسيبكم ترتاحوا والصبح من الساعه ٧ نتقابل عند الوحدة القديمة...

عارف المعسكر القديم،؟» أومأ عبد الوهاب برأسه إيجابًا وتركنا الرويعي ورحل، حاول عليوة الحديث معي إلا أنني أوقفته وخلدت للنوم في غرفتي ففي النهاية كان رفيق ١٠ سنوات عمل يجزم بأنني لن أذهب في الموعد مهما فعل.

***

في قطاع الأمن الوطني وردت المعلومات بوجود خلية إرهابية تتمركز في الواحات، الكل يعمل على قدم وساق، فالعمق الصحراوي وتضاريسه مخيفة للغاية والعدو أكثر معرفة به، عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل عندما تحركت المأمورية، اتصل إسلام الرويعي الشقيق الأصغر لمصطفي ليتحدث معه قليلاً ليطمئن قبل أية مأمورية مثلما تعود إلا أنه لم يرد عليه فانقبض قلبه، خرج مع زملائه ملبين نداء الوطن جنبًا إلى جنب بعد أن قابلوا قصّاص الأثر في مهمة يعلمون فيها أنهم قد لايعودون، اندلعت المعركة التي لم تكن غير متكافئه فقد فوجئوا بأن الإرهابيين قد أخرجوا من تحت الرمال أسلحة ثقيلة لتبدأ مواجهات صعبة.

***

في السادسة صباحًا استيقظ الرويعي ليسبقنا إلى المقر القديم لمعسكرالأمن المركزي حيث سيتلو بنود الخطة، حاول الاتصال بشقيقه أكثر من مرة إلا أن هاتفه كان مغلقًا لم يساوره القلق فهو ضابط عمليات مثله واعتادا على ذلك، ابتسم وهو يرى صورته الظاهره على الهاتف،

مـن بعيـد رأى عليـوة قادمًـا حـرك رأسـه يمينًـا ويسـارًا بحثـاً عنـي فلـم يجـدني فكتـم غيظـه موجهًـا سـؤاله» أسـتاذه فريـده فـين»، ابتسـم عليـوة بهـدوء والحقيقـه أن صديقـي دبلومـاسي رائـع فحـاول امتصـاص الموقـف معـبرًا لـه عـن خطئـه وخطئي أنـا بتصغـير «مخـي» رغـم الحـدث الجلـل وهـو بتقليلـه لحجمي رغـم أن الخطـة كلهـا قائمـة عـلى شـخصي، حـاول مقاطعتـه فقـال لـه «أنـا عـارف إنـك باصـص لفريـدة إنهـا حتـة بـت وإن إيـه البـت دي الـلي هتودينـا وراهـا وتجيبنـا والأهـم أن القيـادات مقتنعـة بيهـا والأكـتر أن السـفاح بـرده مقتنـع بيهـا وانهـا شـايفه نفسـها حبتـين ومبتسـمعش الـكلام صـح.. بـس أنـا عـاوزك تبـص ليهـا إنهـا صحفيـة مجبتهـاش ولاده ..فريـدة شـاطرة فعـلاً وعندهـا خـبره هايلـه رغـم سـنها الصغـير وان ليهـا كل الحـق انهـا تعتـز بنفسـها مـن غيرماتحـس انـك بتقلـل منهـا أو إنـك بتؤمرهـا زي العسـاكر ..فريـدة لازم هتناقشـها .. جـرب تناقشـها» أومـأ «الرويعـي» برأسـه، وقـال «في الحقيقـة هـي شـاطرة محـدش ينكـر بـس عـاوزه حـد يسـيطر عليهـا يقولهـا اسـتني شـوية .. يعنـي مـش معقـول متجيـش اجتـماع مهـم عشـان مقولتلهـاش «مسـاء النـور» قاطعـه عبـد الوهـاب

«عشـان تجاهلتهـا يافنـدم والسـتات تحديـدًا تسـيطر عليهـم بالرفـق واللـين صدقنـي الشـدة بتجيـب العكـس».

اسـتمر عليـوة والرويعـي في الحديـث لينقلبـا صديقـين يجمعهـما صديـق وشريـك غائـب حـاضر قـررا أن يحدثـاه بـكل ود للحضـور ولم يكونـا يعلـمان إننـي كنـت في الطريـق إليهـما فعـلاً.

***

الفصل الرابع عشر

الشهداء

الأخبار باتت تأتي بانهزام قواتنا أمام الإرهابيين في تلك الجوله هزيمة ثقيله بنحاة ٣ ضباط واستشهاد ١١ وأسر ضابط، غصة ما أصابت.

قلبي مثلما أصابت قلوب المصريين كلهم على الشهداء وخوف على مصير الضابط المختطف، وحزن خاص فمن ضمن أسماء شهداء البيان كان اسم «اسلام الرويعي» الذي كنت أعد تقريرًا إنسانيًا حوله فعلمت أن شقيقه هو مصطفى !

– عليوة: يللا بقى كلمها مش اقتنعت؟

– الرويعي: إيه.. اقتنعت آه بس مش مكلمها.

– عليوة: يا باشا كلمها خليها تيجي أبو الدهب بيه جاي وهيكدرك ووقتها مش هيبقي دلع بنات وبس لاااا ده هيبقي عند ولاد و .

الرويعي: إن شاء لله اترفد بقى مش مكلمها وهتيجي ورجلها فوق رقبتها.

عليوه: دي زميلتي وانا حافظها صم مش هتيجي يا باشا و

«صباح الخير يا مصطفي بيه يارب تكون بخير» قلتها بطيبة أثارت دهشة الاثنين، ابتسم لعليوة «لا باين زميلتك

وتعرفها كويس»، تلعثم رفيقي» والله يافندم أنا مندهش»، ضحك الرويعي بشكل هستيري فيما نظرت له باشفاق، فلم أكن أسمع حديثهما بشكل واضح، خيالات دموع كانت في عيني فيما اقتربت منه « تعرف إنت بطل جدًا»، كنت لأول مره اتحقق جيدًا من قسمات وجهه، هو أيضًا نظر لي بتمعن «تعرفي إنتي حد جدع جدًا ومتقليش بطولة عن حد فينا»، كنت أريد أن أربت على كتفه إلا أنني تراجعت فاكتفيت بقول « شد حيلك» فضحك ساخرًا « هو في إيه إحنا متنا ولا إيه .. تفاءلي يا أستاذه كده.. وإيه شد دي فين حرف النون .. نشد حيلنا .. بقولك إيه بتعرفي تعملي شاي .. البراد وراكي هخلي البساط أحمدي واعمليلنا عقبال ما ييجي أبو الدهب بيه الاتصالات هنا مقطوعة ومتشوش عليها عشان محدش يقطرنا وانا هطلع على أول الطريق أكلم أخويا بس أصله رانن عليه وعاوز أطمن عليه» .

وقتها فقط أيقنت أن ضحكه لم يكن صدمة مثلما تخيلت فببساطة هو لم يصل إليه خبر استشهاد شقيقه أصلاً، اااه يا رويعي لماذا تصر المواقف الصعبه أن تجمعنا سوية تارة أبان ثورة يناير وتارة عند استشهاد صديق عمرك والآن شقيقك، وبعدها بقليل سنكون رفيقي مهمة أصعب، شعرت بدوار

وهـو يبتعـد فاسـتند عـلى جـذع نخلـة متهالـك فاقـترب منـي عليـوة « ياسـلام .. يارب تكون بخير يا سـيادة الرائـد .. واتحايل عليكـي الصبـح تنـزلي مرضتيـش»، كان وجهـي شـاحبًا بـما فيـه الكفايـة ليعـرف عليـوة أن هنـاك مصيبـة، جـاء الرويعـي مَرحًـا يسـألني إن كنـت اسـتطعت التعامـل مـع بـراد شـايه القديـم، وقتهـا سـألته إن كان اسـم شـقيقه إسـلام.

– أه وعرفتـي منـين بتعملي عنـي تحريات ولا إيـه.. لا إصحي يا أسـتاذه إحنـا بس الـلي بنعمل

– هو في العمليات برده؟

–إيه الموضوع يا أستاذة فريدة

– ربنا يتقبله في الشهداء يا فندم

–إيه؟؟

–أنا آسفة يا فندم

–أسفة إيه .. إنتي بتخرفي بتقولي إيه؟

جـرى الرويعـي مـن أمامنـا مـن هـول الخـبر، قلـت لعليـوة اتبعـه وأنـا سـأرحل عائـدة إلى الأوتيـل، عـلى البـاب قابلنـا « أبـو الدهـب» كانـت عينـاه حزينـة غاضبـة « البقـاء لله يـا رويعـي» كان مصطفـى بيتنفـس بصعوبـة ويـردد اسـم شـقيقه

فأمسك بكتفيه «امسكك نفسك ياد معنديش رجاله تعيط أمال النسوان تعمل إيه» تمالك الرويعي نفسه قليلاً، وقال «أمي كويسة يا فندم»، أجاب «كويسه وربنا يربط على قلبها وبتدعيلك» فرفع رأسه «إسلام مات إزاي يا باشا» أجاب «أبو الدهب برباطة جأش» لكل أجل كتاب ..مات شهيد .. مماتش على سريره .. في تار لازم يتاخد لإسلام وغير إسلام، ومش هينفع يتأجل يوم وانت عارف وأنا عارف الوقت قليل هسيبك ترتاح للضهر ونتقابل كلنا هنا « أومأ الرويعي برأسه، المشهد كله كان يوحي بتأكيد معلومات بوجود يد لمطاريد الجبال، يد تأوي وإن لم تكن تهاجم أو تغتال، لم أشأ أن أذهب لأرتاح فجلست أنا وعليوة بجوار صديقنا الثالث الذي بدا واجمًا من أثر الصدمة.

***

الكل كان يتابع الحدث بشغف فيما توارت أخبار السفاح قليلاً .. حضر العسكري بركات الذي طلب له عليوه إحضار بعض الجرائد الورقية في ظل انقطاع الشبكة عن المكان الذي كنا فيه، ناولني إحداها، رأيت صورته «الأمير نواري» زينة شباب قبايل ليبيا، كنا قد تنكرنا أنا وعليوة لعمل موضوع عن الباب الملكي لدخول السلاح

إلى مصر حيث رصدنا عمليات التهريب إبان ثورة يناير وحالة الانفلات، وكيف استغلها المهربين وهناك تعرفنا على القبائل الوطنية الليبية التي حرمت وجاهدت فكر داعش وناصرت القوات المصرية، وكان أحدهم الأمير نواري وكيف تقمصت دور خرساء حتى أتجنب الحديث باللغة الليبية التي أتقنها عليوة فيما فشلت أنا، وحتى لا ننكشف قررت عدم الحديث حتى ننزل ضيوفًا على القبيلة من طرف قبيلة أخرى إلا أن الأمر تطور بأن أحب الأمير النوري الفتاة البكماء وطلبها للزواج لتنتهي مهمتنا الصحفية ليلة الزفاف التي انتهت بهربها مسببة له فضيحة حيث تركت له جوابًا أحكي له فيه عن هويتي الحقيقيه وأنني أقوم بتحقيق صحفي عابر للحدود وبالفعل تم نشره في اليوم التالي ليصدر قراره بتشميسي، والتشميس عندهم يعني هدر دمي بين قبائلهم وأرسلت رسالة اعتذار إلا أنه لم يرد أبدًا، عندما وقعت عيني على صورته وتذكرت قصة التشميس شعرت بانقباض في قلبي فكل شئ يوحي بأنه نذير شؤم على مهمتنا التي سنقوم بها للإيقاع بشفيق الذي لم يكن خصمًا سهلاً، نظرت للرويعي الذي بدا منكس الرأس .. اقتربت منه بعض الشئ.

- رويعي بيه .. عاوزه أقولك حاجة

- اتفضلي

- أخوك مات بطل

-طـول عمـره بطـل وطـول عمـري بقولـه إنـت مدلـع.. ياريتنـي كنـت صاحـي ورديـت عليـه

- ربنا بيختار الأحسن

- محدش هيحس بالنار قدي

-أكيد

- عيط يافندم

-نعم

- عيـط.. الرجالـه بتعيـط يافنـدم.. لـو مبيعيطـوش مكنـش ربنـا خلقلهـم دمـوع .. الراجـل بنـي آدم بيضعـف زي السـت .. الدمـوع بتريـح يافنـدم عيـط و لم اكمـل حديثـي والحقيقـي أن الرويعـي انخـرط في بـكاء مريـر ومـن داخـلي شـعر بالراحـة

***

الفصل الخامس عشر

الخطة

نفث دخان سيجارته وهو يشرح لنا أننا منذ الآن سننادي بعضنا البعض بأسماء حركية ستربط بيننا وبين القوات الجديدة وبين رجال الجيش الأبطال الذين سيحصنوننا وبين بعض رجال «شفيق» الذي ثبت ضلوعه في تخبئة بعض العناصر الإرهابية مقابل مبالغ مالية ، اخترت ليل «والحقيقة أنني سميت به منذ سنوات تذكرت النوري» و «بدو السلوم» وكيف ارتبطوا بي وكيف كنت لمدة شهر أعامل كأميرة أثرت فيهم كلية .

تذكرت عيون ياسين الذي تركته طفلا في عمر السبع سنوات وكيف كان معلقا بي ، وجاءت بخاطري «ناعسه» زوجة «النويري» التي أصيبت بحمى النفاس وظللت جوارها أعمل كممرضه رغم غيرتها الشديدة التي كنت أضحك منها فلو تعرف حقيقتي لعلمت أن مجرد التفكير في الزواج من بدوي كزوجها ولو أمير هو أمر محال إلا أننا بتنا مقربتين بعد مرضها ، اخترت لأبو الدهب اسم «عبد الحي»، تيمنًا باسم الشيخ الصوفي «عبد الحي العليمي» الذي كان يريحنا وجهه وكان «الثعلب» من نصيب «الرويعي» ومن هنا بات لكل منا اسمين.

اتصلت بغانم أكثر من مره خلال يومين إلا أن كل محاولاتنا باءت بالفشل الذريع فخطة الذي حدثني منه مسبقًا كان مغلقاً طوال الوبت فأرسلت له رسالة بضرورة الاتصال ولم يأتِ أي رد عليها.

شعرنا بالإحباط الشديد، كنا نرى أن شفيق بات يهزمنا وأن الأحداث المتتاليه باتت تقسمنا، تنفسنا بصعوبة، وقررنا ترك المقر والعودة إلى الأوتيل للراحة، في منتصف الليل دق الهاتف، لم أصدق عيني عندما رأيت رقم غانم فقد أعطى أبو الدهب إشارة بفشل الخطة لعدم إيجاد طريقة للاتصال بشفيق.

- إنت فين مبتردش ليه.

- بقفل الخط ده مبفتحوش على طول وأول لما لقيت رسالتك قلت أكلمك، خير ياست الكل؟

- قول لشفيق فريدة علم الدين عاوزاك وبس تصبح على خير.

-الو..الو

أغلقت الهاتف وقفزت فرحًا وانطلقت أنادي رفقاء المهمة الصعبة بأسمائهم الحركية إشارة ببدء المهمة وانتظرنا

اتصال ملك الجبال والذي لم يطل الوقت فخلال نصف ساعة كان متصلاً وأخبرني أنه سيرسل بسيارة لتقلني إليه، وظل يحذرني من أن تتبعني الداخلية وشدَّد على الحذر فيما كنا نبتسم فقد ابتلع الطعم بكل سهولة.

قاد الرويعي أو الثعلب السيارة الصغيرة المجهزة مع النقيب كريم وانتظر عبد الحي أو أبو الدهب في اقرب مكان للتمركز عند الجبال وفي منتصف الليل التقيت غانم الذي اقلني إلى طريق طويل ومظلم ومخيف حتى وصل إلى كهف كبير وهناك ظهر «شفيق «وبعض رجاله والذي اصطحبني إلى الداخل.

وظلَّ يتحدث معي في أشياء كثيرة قبل أن ألحظ وجود فتحة خروج ووجود عربات كثيرة وأفراد مدججين بالسلاح وقبل أن أدرك أننا من ابتلعنا الطعم سمعت صوت الاشتباكات مع قواتنا فظللت أصرخ فيه إلا أنه جذبني وبدلاً من أن نقبض عليه اختطفني السفاح للمرة الثانيه ولكن هذه المرة لا أعرف ماذا يريد خاصة أنه يعرف أنني أردت الإيقاع به.

ترك الثعلب السيارة لرفيقه وترجل راكضًا وظل يختبئ بين الحجارة حتى وصل إلى سيارة من سيارات «شفيق»

وتشبث فيها في شجاعة نادرة حتى يستطيع التوصل إلى مكانه ، كان يجهل أنه اختطفني فقد تفرقنا وقت حدوث الاشتباكات.

نجح عبد الحي في الدخول إلى المغارة الوهمية وتصفية عدد ممن هاجموه إلا أنه في النهاية انهزم فشريكي مأموريتيه »ليل»،و «ثعلب» مفقودين ليقرر»أبو الدهب» أن يعلن مقتله ليزيد من ثقة شفيق في نفسه ويظل»عبد الحي»، ويغير استراتيجيته كليًّا.

***

الفصل السادس عشر

حب امتلاك

وصلنا إلى الجبل الحقيقي ، إلى المخبأ الحقيقي لسفاح جبال بكر، كان في استقبالنا «سمية «، و»مصطفى «ابنه الذي ما إن رآني حتى ارتمي في حضني فاحتضنته، فبالنسبه له أنا»طنط فريدة التي كانت تحنو عليه وهي من أخرجت له والده براءة من السجن «، كانت دموعي تنهمر فيما كان ينظر لي في براءة محاولاً فهم سبب بكائي ، في الوقت الذي كان فيه الملك سعيدًا يطلق رصاصًا بالجمله وكأنها الحرب.

فوارغ الرصاص كادت أن تخنق أنفاسي.. بت رهينة عند من أخرجته من السجن ويرفض إطلاق سراحي.. أيقنت من فرحة شفيق الغير مبررة ونظراته الغريبة صدق ما قاله لي الرويعي وأبو الدهب أنه ربما يكون مغرمًا بي فعلاً والحقيقة أنه لايحبني أنا أو هكذا أحلل الأمور هو يحب الشخص الوحيد الذي يذكره بكينونته عندما كان كائنًا نظيفًا ووديعًا .. الحب كثيرًا ما يقتل.. يعلم أن نهايته ستأتي على يدي ولكنه مستسلما تماما لها.. هزيمة نكراء ألحقها بالداخليه وغرور مخيف بات يطل من عينيه الواسعة لدرجة الجحوظ .. هي ذاتها ذات العينين التي رأيتها منذ ٥ أعوام في حلم بأن أكون وسيلة لإخراجه من غياهب السجون وانقاذ رقبته من حبل المشنقة .. عينين

اختفت فيها تمامًا معالم الرحمة وأصبحت تحمل قسوة السنين... لا أعلم إن كنت أتمنى أن يعود الزمن وأفشل في إخراجك فيحرم عشاوي العالم من شرك الذي انطلق عليه كالوحش الكاسر بلا قلب ولا ضمير أم أشفق عليك فجلاديك كانوا كثر وظاليك كانوا أكثر ولم يرحمك أحد .. كل ما أعرفه أنني أكره من يضعني في حيرة من أمري وأن يجبرني على الدخول في صراع داخلي ينتهي لعبارة يبقى الوضع كما هو عليه.

ظل يصرخ كالمجنون ..صدى صوته كان أضخم من صوته نفسه وأكثر رعبًا.. «هما فاكرين إيه .. هيخشوا عرين أسد مجروح بسهولة .. عليه وعلى أعدائي..سرقوا عمري وحياتي وسمعتي عشان البيه ياخدله رتبة وفي الأخر بيقولوا عليه مجرم».

«إنت بقيت شيطان مش مجرم بس.. بص لنفسك في المراية وانت تعرف».. قلتها له في ضعف بالغ فآمالي بأن تنتهي فصول أسطورته اليوم تكسّرت كلها وتحولت إلى خيبة أمل وبداية فصل آخر يحمل وعيدًا أكثر وانتقامًا أكبر وأرواحًا ليس لها ذنب.

نظـر لي يحدثنـي بـذات النـبرة «إنتـي الـلي بتقـولي كـده .. إنتـي .. إنتـي عارفـه إني اتظلمـت وقعـدت في السـجن ٨ سـنين خايـف أنـام .. عشـماوي ييجيـلي في الحلـم «.

- إنـت هتفضـل تـبرر لنفسـك كتـير .. ربنـا أوقـات بيوقعنـا في ابتـلاءات كتـير.. سـيدنا يوسـف اتظلـم واتحبـس وخـرج بقـى عزيـز مـصر عشـان ممشـيش ورا الشـيطان.

قاطعنـي بحـدة «أنـا مـش سـيدنا يوسـف وأنـا مـش في زمـن المعجـزات ولا نبـي عشـان ربنـا يعصمنـي مـن الهـوى ورغبـاتي الشريـره .. ليـه متسـميش ده قصـاص .. أخـد بالتـار».

نظـرت لـه وكنـت قـد بلغـت مـن الضعـف مبلغـه فيـأسي زاد مـن وهنـي النفـسي قبـل الجسـماني قلـت لـه بنـبرة بائسـة «إنـت بتاخـد تـارك مـن مـين بالظبـط.»

نظـر لي بعينـين تغزوهمـا مشـاعر انكسـار واضحـة وكأن السـؤال أصابـه في مقتـل فأكملـت «الحقيقـه إنـت مـش عـارف إنـت بتنتقـم مـن مـين.. يـوم انتحـار المقـدم رفعـت الأسـيوطي الـلي ظلمـك وقعـدم في السـجن بالبدلـة الحمـرا ٨ سـنين .. بالنسـبالك كان يـوم بشـع .. مشـمتش ومفرحتـش ومـا أخدتـش في بالـك النهايـة الـلي ربنـا وصلـه ليهـا بإيديـه عشـان

ينتقملك .. إنت قررت تقلب دنيتك ودنية اللي حواليك جهنم عشان كنت عاوز إنت اللي تقتله ..

مشيت في طريق ملوش رجوع وانت متأكد من ده بس اللي معملتش حسابه إن وانت ماشي فيه إنك هتضطر تظلم ناس تانيه كتير .. ضميرك واجعك لأنك خليتهم زيك وخايف توصل لنفس مصير رفعت الأسيوطي.. حسن فين .. معملش زيك ليه رغم إنه كان في نفس ظروفك وأسوأ ومع ذلك حسن خرج ووقف على رجله تاني وفتح مشروع سمك صغير.

وكبر .. انت بتكدب على نفسك»

«يعني الملحق بتاع المغارة كان عشان خاطر البت الصحفية دي «قالتها»سمية «في «غل «فرد عليها بازدراء فلم يعجبها الحال فطردها فخرجت منكسرة ، قبل أن يخلع عباءته سمع أصوات طلقات الرصاص تدوي فخرج حاملاً بندقيته الآلي متفحصًا الأمر فوجد رجاله حاملين ضابط شرطة فامتقع وجهه فأخبروه إنهم تأكدوا إنه كان بمفرده وإنه مُصاب بطلقتين وفاقد للوعي، نظر ل «سمية «التي كانت تنظر في»هلع»، وقال في سخط «بومه».

كان «مصطفى» يلعب بألعابه عندي في ملحق المغارة الذي باتت حجرتي، دخل «شفيق «مداعبًا ابنه فقلت له «اطلع بره»، حاول جاهدًا الحديث إلا أني لم أتحدث معه فرحل مكسور الخاطر فيما كانت تنظر لي»سمية «التي لم أكن أبغضها أو اخبها بكراهية غير مبررة غير أنني كنت أتجاهلها فقد كان بي مابي ولا ينقصني سواها

غابت قليلاً وأحضرت لي بعض الطعام وأخذت مصطفى وقتها سمعت غانم يتحدث عن ضابط مصاب وحالته تسوء فسألته عنه فجاوبني فطلبت من شفيق الحضور وأخبرته أني أريد رؤيته فأوصافه مثل مصطفى الرويعي ولو كان هو عليه أن يحضره إلى هنا إكرامًا لي ولابنه الذي يتشابه اسمه معه في مقابل أن نتبادل أطراف الحديث فوافق على مضض، وما توقعته قد كان وعلى مقدار فرحي بأنه الثعلب على مقدار حزني بشحوب وجهه.

منظر «الرويعي» لم يشجعني على تناول اللقيمات اللي أأكلها بالأساس لأصلب نفسي إلا أنني في تلك الليلة كنت سأخلد للنوم لولا دخول شفيق هلعًا فوبخته فأخذ صحن الطعام وصرخ «كلتي حاجة» فأومأت نفيًا وأنا خائفة فرد بسرعة «الحمد لله ربنا يحفظك .. إنتي عملك

طيب.. أنا عمري ماهخلي حد يأذيكي « ، هالني منظر جلبابه الملطخ بالدم فهرولت وراءه لإفهم ماذا حدث ، على باب مغارتي وقفت لأفاجأ به يجر «سمية «من شعرها جثة هامدة مذبوحة ، رجعت للوراء فاصطدمت بخادمه كاره السيدات والذي قال بابتسامة «تستاهل» وأضاف»أنا شفت كيس السم ده حد مخبيه شكيت فيها .. رحت قلت للملك .. أصلي أشم كيد النسا ده من على بعد».

أضاف في غبطة غريبة « الملك كان زي المجنون .. واجهها قالتله» أنا بحبك زمان الصحفية ماتت وشبعت موت «..ضحك مثل المجنون فيما شعرت بالاشمئزاز وأن دوار ما أصابني فقال لي في لؤم «لا سلامتك عقبالك».

عدت خائفة إلى مغارتي ، جلست بجوار جسد الرويعي وكأني ألتمس منه الأمان ، تذكرت «سمية «أمس عندما طلبت مقابلتي ، كيف بدت متوترة خائفة مني وكأنني سأسلب منها كل شئ ، مسكينة يا»سمية «يبدو أن وسائلي في طمأنتك أوصلت لكي الرسالة خطأ ، أكرهك يا شفيق لقد بت تدمرنا كلنا.

***

اتصالات مريبة تحدث.. ساكني الجبل على قدم وساق.. المغارة السفلية يتم تجهيزها على أكمل وجه .. كنت جالسة بجوار الرويعي الذي بدا وجهه مصفرًا .. رهينة الجبل باتت غير قادرة على التشبث بالحياة فألم الجِراح التي تركتها الرصاصتين لا تنقطع رغم كي «الدكتور لمعي «لها ..

ماذا فعلت ياحلاق الصحه بجراح الرجل فكيك لم يطببها بقدر ما زادها إلتهابا لا يحتاج إلى تشخيص فالعين المجردة تدمع عندما ترى أن القيح بدأ يأكل جرجه .. مسكين يا رويعي مازلت ضابطًا شابًا لتقع فريسة لكل هذا العبث الذي قد يودي بحياتك بعد صراع مر فسجانوك لايهمهم إن كنت تتألم أم لا ..

قد يكونوا يتلذذون بأنّاتك التي لا تنقطع فلا يكلفون أنفسهم عناء الإتيان بمسكن قوي يرحمك ولو لساعات وكل ما يعنيهم أن تظل روحك الممتلئة بالصبر والبطوله سجينة لجسدك المجروح ..

غريبون ضباط قطاع الأمن المركزي المنتميون للعمليات الخاصة تشعر كأنهم ضباط من نوع آخر فهم الأطهر والأشرف والأسمى والأكثر إيمانًا بالتضحية عُشّاق الشهادة في الوزارة العريقة.

لم يكن بوسعي شيئًا لأقدمه له .. كنت أخاف حتى من لمس جراحه حتى لا أزيد من ألمه ..فقط كنت أكتفي بتأمل وجهه من وقت لآخر وأهرع لسماع أنفاسه بأذني عندما يتوقف أنينه لدقائق سرعان ما تنتهي.

اشمأززت عندما دخل حلاق الصحة بأكمامه المتسخة ليضع له بعض الأعشاب ويحاول أن يخرج قيحه من جرحه عنوة عن طريق الضغط .. كان يجبر المسكين على عدم الصراخ ليداري جهله وخيبته باستفزازه بكلمات تخرج بغلظة «استرجل يا حضرة الظابط.. كانوا بيأكلكو إيه في الميري كيك ولا باتيه «.. «

الدكتور لمعي «كان يكتسب مكانته بين سكان الجبل بخبرة ضئيلة في الطب وحقن الهيروين .. كانوا يعتمدون عليه في حقن مدمنين الجبل الذين اتبعوا «طباخ السم بيدوقه «ليتناسوا قسوة الصحاري ويتحملوا حياتهم التي تمضي في روتين خطر لا يشعرون معه بالراحة أو حقن أعدائهم الذين يريدون الخلاص منهم فتلك جرعة والأخرى ترياق يوقف القلب باسم «الأوفر دوس».

أنهى تنظيفه لجرحي الرويعي الذي تحوَّل اصفرار وجهه إلى احمرار من شدة تحمله للألم والضغط على نفسه بعدم الصراخ الذي كان يكتمه داخل صدره حتى لا يشمت في

البدلـه المـيري أعداؤهـا أو يعطـي الفرصـة لحـلاق الصحـه أن يزيـد مـن اسـتهزائه ...

لم أكـن أطيـق شـكل أو رائحة»لمعـي «إلا أننـي اضطـررت لمحادثتـه بلـين غـير معهـود منـي وكان يتمنـاه فبالنسـبة لـه أنـا الأسـتاذه الكبـيرة التـي كان يقـرأ مقالاتهـا وتحقيقاتهـا المثـيرة بشـغف رغـم هجـاؤه للكلـمات بصعوبـة .. كنـت اريـد أن أعـرف سر كل تلـك الجلبـة التـي قلبـت الجبـل رأسًـا عـلى عقـب.

هو في إيه يا دكتور لمعي ؟

انفرجـت أسـاريره مبتسـمًا ابتسـامة عريضـة أظهـرت سـنته المخلوعـة التـي زادت مـن اشـمئزاز منظـره وقـال « إلهـي منحـرم منـك.. أخـيرًا وافقتـي تدكتريني»

عـدت عليـه سـؤالي فأخـبرني أن «الملـك « بنتظـر ضيوفًـا مـن العيـار الثقيـل سـيمكثون معنـا لأسـابيع قليلـة قبـل أن يرحلـوا إلى وجهـة لا أحـد يعلمهـا غيرهـم..

رغـم محـاولاتي لمعرفـة هويتهـم إلا أنـه لم يكـن يـرد إلا بنفـس الـرد فتوقفـت تمامًـا عـن الإلحـاح بعـد أن أيقنـت أن لمعـي فعـلاً لا يعـرف شـيئًا سـوى مـا قالـه فعـدت للجلـوس بجـوار الرويعـي أجفـف لـه عـرق جبينـه المتصبـب ألمًـا.

بعد ساعة هدأ كل شئ .. لم أعرف لما كانت كل تلك الجلبه ولا لماذا انتهت .. فالجبل رغم قلة ضيوفه من الأوباش وقطاع الطرق والمطلوبين ممن يطلبون الحماية من الملك لم تكن هناك مراسم من قبل لاستقبالهم بذلك الشكل فقد كانوا يدخلون ويخرجون بهدوء شديد ..

كعادته نزل من مغارته العليا ليتفقد رعاياه المشبوهين ويمارس سطوته ونفوذه على قطعة من جهنم لا أعرف متى أو كيف نشأت في جنة اسمها بلادي فسكانها كانوا كلهم من الشياطين وطلعها كان الأثل ..

دخل علينا فقد أصبحنا أيضًا من ضمن رعاياه .. نعم رفعنا إلى منزلة الرعية المميزين بمغارة مؤثثة وكولدير للمياه المثلجة ومروحة إلا أننا في النهاية من رعيته .. كل أجهزة الجبل كانت تعمل على مولدين يبعث بهما مراسيل لشحنهما من وقت لآخر من أسيوط والمنيا وبني سويف.

اعتدلتُ عندما رأيته قادمًا وتركت «فوطة «كنت أستخدمها لمسح جبين مريضي القابع بين الحياة والموت ينتظر الرحمة، إمَّا من رصاصة تُطلق عليه فتكتب له الشهاده أو من زيارة سيرحب بها من عزرائيل ليأخذه من جراجه وألمه .. تأملني كعادته قبل أن ينظر له في عدم اكتراث ويقول:

– الباشا أخباره إيه.. شكله أحسن انهاردة.. لا شد حيلك عاوزينك تطول معانا شويه.

كانت تنطلق بعدها ضحكة ساخرة كان يتردد صداها القاسي في المكان كله عاكسة حالة التشفي التي بداخله..

لا أعلم يا شفيق كيف تحوَّلت أو متى غير أنني كل ما أدركه أن شفيق القديم قد مات منذ ذلك اليوم الذي قبضت عليه فيه الداخلية بتهمة التظاهر أمامها لإرجاع كرامته المسلوبة ليخلي سبيله ويختفي في ظروف غامضه ..

لم ينتظر يد الله لتعينه أو أيادينا التي كانت تسعى لتوظيفه في مكان يليق به فقد كان بالنسبة لنا أيوب الذي صبر وينتظر معجزة تكافئ صبره إلا أنه كان عجولاً.

تجنّبت النظر إليه إلا أنه اقترب مني وتحوَّلت نبرته من الغلظة إلى الرقة. كالعاده قال لي:

– عامله إيه.. في حاجة ناقصاكي يابت الأصول.

كانت لهجته قد تشبعت قليلاً من لهجة مطاريده الذين كان نصفهم من الصعيد الجواني مثلما يطلقون عليه.. لم أرد عليه أيضًا كالعادة فقد كنت أكتفي بنظرة أعلم أنها توقد بداخله نارًا كلما انطفأت جذوتها أشعلتها في لقائه القادم ...

كنت أدرك مدى غيرته من نظرة الشفقة التي يراها في عيني اتجاه الرويعي ..كان يريد أن يسلب تلك النظرة منه بأية طريقة ..

كان يريد أن يعيدها إليَّ منذ سابق العهد ... ألم تدرك يا شفيق بعد أنّ ذلك العهد قد ولّى ، فيكفيني جريمة واحدة لتحكم عليك إنسانيتي بالإعدام وذاكرتي بالنسيان..

أنت الآن بالنسبة لي لست سجين العقرب المحبوس الذي ينتظر لقاء عشماوي ..أنت شفيق .. المتهم في أخباري وشرير تحقيقاتي وإبليس الأرض المطرود من الجنة.

أخرج من جيبه «بار شيكولاته «أحبها ووضعه على حجر كبير كنا نستخدمه «كطاولة «وهمّ بالرحيل قبل أن يدخل علينا رجل في الأربعينيات من عمره ..كانت «زبيبة الصلاة «تأكل نصف جبينه وكحل عينيه سائحًا من حرارة الجو ولحيته طويلة إلى منتصف صدره .. شكله كان مخيفًا يبعث انقباضة في القلب ..لم أحتاج إلى وقت طويل لأعرف أنه أحد الأغراب .

انزعج «شفيق «الذي منع دخوله إلى قلب المغارة .. رمقني الضيف المجهول بنظرة أعترف أنها جعلت الخوف

يـدب في أوصـالي، ولكـن أكثـر مـا أخافنـي فعـلاً نظراتـه الحارقـة للرويعـي الـذي حـدّق فيـه وبـدا مذهـولاً.

صرخ «شـفيق «فيـه «إيـه يـا مرصفـاوي .. اسـمع .. المغـارة دي مُحرّمـة عليـك.. إذا كانـوا شـوية المخابيـل الـلي معـاك بيقولولـك يـا أمـير فـلا مؤاخـذة أنـا هنـا «الملـك».

اسـتمرت نظـرة التحديـق بـين المرصفـاوي والرويعـي رغـم توجيـه شـفيق الـكلام إليـه وهـو مـا أجـبر الأخيرعـلى جذبـه مـن يـده وإزاحـة وجهـه تجاهـه عنـوة عنـه ليضيـف في عنـف «لـو خطيـت المغـارة دي إنـت أو أي حـد مـن رجالتـك ..أنـا همسـحكوا مسـح .. مـش هخـلي الدبـان الأزرق يعرفلكـوا طريـق.. إحنـا هنـا بيحكمنـا قانـون البـدو وانـت قعـدت معاهـم وعـارف .. الغـدر جـزاؤه التشـميس».

انفعـل «المرصفـاوي «موجهًـا الـكلام إليـه «إي ده .. بتحرمهـا علينـا ليـه.. سـبحان الله في طبعـك يـا أخـي كأنهـا الجنـة واحنـا الشـياطين .. الـواد ده أنـا عايـزه .. اتقـي الله يـا شـفيق وخلينـا نقتـص منـه وإذا كنـت فاكـر نفسـك «ملـك «وغـراك الدنيـا افتكـر ملـك الملـوك و..».

قاطعـه شـفيق بضحكـه سـاخرة وصرخ بصـوتٍ عـالٍ «بقولـك إيـه يامرصفـاوي .. المغـارة دي الجنـة أه ومحرمـة

عليك... ووالنبي ياخويا سيبك من البقين الحمضانين اللي بتضحك بيهم عالعيال دول.. أنا مش عيل يا مرصفاوي هتقوله ربنا بيقولك اقتل وادبح وخد فلوس وهيقولك آمين.. كلنا مجرمين وداخلين نار جهنم يا خويا».

كان رجال المغاره قد اجتمعوا على صوته الجهوري وانضم لهم ٤ رجال على شاكلة المرصفاوي وإن كانوا قد حلقوا لحاهم ليضيف شفيق «الواد ده غنيمتي أنا.. وحقي أنا..وتاري أنا .. واللي هيقربله فيكو تمنه هيبقى عمره وعمر الأربعة اللي معاه ..مش عاجبكوا هطردكو طردة الكلاب وفلوس تخبيتكوا وحمايتكو مش هتطولوا منها مليم لأن انتو اللي هتبقوا ابتديتوا بالغدر ..

الهمبكة بتاعتكو دي بلاش منها معايا ... الصلاة اللي وضوها دم أبريا متتقبلش يا مولانا .. فوق يا مرصفاوي إذا كنت أمير لأربعة فأنا ملك الجبل».

نظر «شفيق «لرجاله مشيرًا بأصابعه على عينيه وكانت إشارة معناها أمرًا بوضع «أصحاب الدقون «تحت مراقبتهم الكاملة .. الحقيقة كنت لأول مرة أشعر بامتنان منذ دخولي مغارة الجبل كرهينه تجاه «الملك «فقد شعرت بأن أوامره كانت حماية كاملة ربما ليست لي بقدر ماهو حماية للرويعي الذي بدا ممتقع الوجه لسبب مازلت أجهله غير أن أوامر

شفيق أراحتني كثيرًا قبداخلي كانت هناك رغبة بعدم رؤية وجه المرصفاوي مرة أخرى.

دلدل أمير الدم رأسه مذعنًا لشفيق الذي خرج وسط عزوته من الرجال والسلاح وكأنه حقا ملك ..أخيرًا مغارتنا الصغيرة خالية .. عدت إلى الرويعي وأنا أحدثه عن الموقف الذي دار واصفة له إحساسي بالمرصفاوي ورجاله .. توقفت عن الكلام عندما شاهدت خيالات دموع تأبى النزول ..

فالرجل يحاول قدر الإمكان حبسها داخل مآقيه حفاظًا على هيبة الرجولة .. صديقي الذي بدا كالأسد الجريح الذي تجمّعت عليه الذئاب يتقايضون على نزع روحه منه بعد أن سلبوه ملكه ..

فكرت قليلاً هل أستمر بالحديث معه لأهون عليه وأرضي فضولي عن سبب تحديقه في المرصفاوي وكأنه يعرفه منذ زمن أم أبتعد عن الرجل وأتركه وشأنه مع لحظة ضعف يلوي فيها رأسه ليبعدها عن نظري رغبة منه بألّا أراه هكذا ..

بيني وبين ذاتي قرّرت الانسحاب فأعطيته ظهري وهممت بالرحيل بالاتجاه الآخر..تجاه فرشتي الوثيرة التي

أعدها لي «الملك «بنفسه لأنام عليها .. أوقفني صوته المختلط بنحيب يصيب عمق قلبك بالآلم.

- أستاذة فريدة.. تفتكري أنا عملت إيه في حياتي وحش عشان ده كله يجرالي..

التفت إليه وعدت أدراجي ولم أشأ أن أقاطعه فأكمل.

- يعني أضرب رصاصتين مش واحدة .. والشهادة منولهاش.. وقتّال قتله زي شفيق يأسرني وكمان كلب زي المرصفاوي عاوز يضربني رصاصة الرحمة .. ليه كده؟

قلت له .. هو إنت تعرف المرصفاوي ده؟

- أه أعرفه .. ده عشرة عمر.

نظرت إليه في دهشة فقال المرصفاوي ده خريج علوم قسم كيميا .. اتقابلنا في الألفينيات كان وقتها منضم للجهاديين بتوع القاعده ..نفس الفكر والطريقة ..خاله كان يبقي دراع واحد جهادى وقبضت عليه هو ومجموعته كانوا بيخططوا لتفجير كنيسة زي القديسيين بتاعة إسكندرية ...كنت وقتها ملازم أول واترقيت استثنائي بسبب القضية دي.. كانت قضايا الإرهاب غريبة على مصر قبل ثورة يناير واتحكم عليهم بالمؤبد.. ياريت القاضي كان إداهم إعدام مكنش ده بقه حالنا.

- هو خرج ساعة هوجة الهجوم على السجون مش كده؟

- أديكي فهمتي أهه ..وقتل معاون مباحث صاحب عمري .. ودلوقتي جاي يقابلني وأنا بالوضع ده وفي المكان ده عشان ياخد تاره ..شفتي حظ مقندل زي كده.

نظر لي الرويعي وهذه المرة لم يستطع منع دموعه التي اختلطت بضحك غريب فيما ظللت أجفف عرقه وأحاول مسحها وكأنني أتجاهلها حتى لا أضعه في حرج ما ..ظل يردد من قلبه .. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

لا أتذكر عدد المرات التي كرر فيها «الرويعي»ابتهالاته فقد غلب على كلينا نوم عميق لأول مرة منذ دخولنا هذا المكان فيد الله الحانية فيما يبدو أنها مسحت على جبين الجريح المتألم .

صباح كغيره من صباح مغارتنا .. دخل «مصباح» حاملاً «صينية «الإفطار ووضعها وهو يبتسم لي» ابتسامة بلهاء..

لاحظت وقوف أربع رجال على مغارتنا بدلاً من اثنين .. لم أفرح أن الأشرار تحمينا من «كلاب النار».. ولكن كنت ممتنة لهذا الوضع فالرويعي يكفيه آلام جراحه لا ينقصه

خوف ربما ليس من الموت ولكن من طريقة تجبره على الخضوع للضالين المضلين فيموت دون كرامة .

في الخيمه التي نصبها جنود الأمن المركزي للقيادات الأمنيه على بعد كيلو مترات كثيرة من الجبال جلس أبو الدهب ينظر لها من بعيد..هنا معركته القادمة..

هناك يقبع الأعداء والأحباب .. هناك عليه أن يكون ذو قرنين هذه المنطقة .. الواجب يحتم عليه الانتصار وأن يفصل بين الناس وأشرارهم بسدود الحديد التي تسوقهم إلى جهنم ليحيا الناس آمنين في أرض الله.

عقله كاد أن يتوقف .. فلم يكن يحارب شخصًا سهلاً فشفيق ليس مُسجلاً يريد إحضاره أو متهمًا يريد إلقاء القبض عليه.. شفيق بات داهية إجرامية وأصبح حديث مصر كلها..

تذكر ماحدث منذ ٥ أيام عندما هاجم الدورية الأمنيه في الطريق الغربي للمنيا وكاد أن يقتل مفتش مباحث الوزارة لولا بسالة مصطفى الرويعي .. ٥ أيام من المفاوضات حول تسليم الرويعي وفريدة حيين ويطلب فيهما ٥ ملايين جنيه والإفراج عن اثنين من المحكوم عليهم بالأعدام ..

كل شـيء في عقلـه كان متداخـلاً وهـو نفسـه عاجـزًا عـن التفكـير .. شرب رشـفة مـن الشـاي فنزلـت في حلقـه مـرة كالعلقـم فهجـر كوبـه ومقعـده ..أراد أن يختـلي بنفسـه.. كان أول الطريـق الصحيـح في التفكـير الاعـتراف أن شـيطان الجبـل ألحـق بـه عـدة هزائـم متواليـة.

فتـح عينيـه التـي كانـت متورمـة ربـما مـن دمـوع أبـت أن تتركـه وشـأنه حتـى غفـا قـال لي «ممكـن تجيبيـلي أشرب».

كان صوتـه متعبًـا جـدًا .. أحـضرت لـه كـوب مـاء ورفعتـه قليـلاً ليـشرب .. غـير أنـه فجـأة وبـدون مقدمـات تراخـت عضـلات يديـه وبصـق الرويعـي المـاء وأسـبل جفنيـه وأصبـح سـاكنًا سـكونًا مخيفًـا.. سـكونًا قبـض قلبـي.

- إلحقـوني يـا ناس..ألحقـوني يـا عـالم ..ظللـت أصرخ قبـل أن يدخـل رجـال شـفيق ومـن خلفهـم المرصفـاوي ورجالـه الذيـن دفعهـم حـب الفضـول لرؤيـة مـا يحـدث.. كنـت قـد انهـرت تمامًـا عندمـا قـال حـلاق الصحـه بـدم بـارد «قلبـه وقـف.. ده اتـكل».

لم أشـعر بنفـسي إلا وأنـا أمسـك برقبـة شـفيق عندمـا دخـل وأنـا أصرخ «قتلتـه يـا ظـالم .. قتلتـه.. أنـا عمري ماهسـامحك»..

أمسك شفيق بيدي وهو ينظر لجثمان الرويعي قبل أن ينطلق صوت رفيع من خلف التجمع «ابعدوا ..لازم نعمله انعاش قلب».

صمت الكل ونظروا إلى مصدر الصوت ..كان هو أنور سيف الأسلام الطبيب النابغة، الشاب الذي كان تصنيفه الأول على دفعته والذي ترك دراسته وحياته وهام وراء سراب الجهاد ..هذا ماعرفته عنه فيما بعد ..

نظر له «مولاه «فقال «يا أمير الكلب الكافر ده لازم ميمتش في سلام..خليني أنقذه عشان يفضل يتألم ويموت في اليوم ١٠٠ مرة «ونظر لشفيق مقتربًا منه «أنا متأكد إن الملك ربنا هيهديه وهيخلينا نموته موته وحشة ونصور نهايته ونذيعها للناس ونشفي غليلنا كلنا».

وأضاف «ماهو مينفعش يموت كده ، عالأقل وجوده هنا وسيلة أمان وتفاوض للكل لحد لما نخرج».

«إنت إيش دخلك في الطب «قالها حلاق الصحه الذي كان يجهل أن أنور طبيبًا، فرد الثاني بعجرفه»أنا خريج طب مش حلاق صحة يا لمعي «.. نظر له الأخير في غل واضح ويبدو أنه جالت بخاطره فكرة أن مكانته المميزة سيشاركه فيها آخر إن لم يكن سيسحبها منه تمامًا طوال

مـدة إقامتـه ..كنـت أبكـي في هسـتيرية .. كان كلامهـم بالنسـبه ليـه درب مـن الجنـون .. نظـرت لشـفيق وأنـا في ضعـف كامـل «أبـوس إيـدك خليـه يسـاعده».. تبـادل أمـير الـدم وملـك الجبـل النظـرات التـي كانـت توحـي باقتناعهـم بـكلام الشـاب قبـل أن يعطيـه الأخـير الأمـر بمسـاعدة الجثـة الهامـدة عـلى أمـل أن تـدب فيهـا الحيـاه..

مـرت الدقائـق التـي مـارس فيهـا الدكتـور أنـور أو الأخ أنـور مثلـما ينادونـه إسـعافاته الأوَّليـة لإنعـاش قلـب ونيـسي وصديقـي وشريـك الأسر والمغـارة كأنهـا سـنوات تقسـم الظهـر.

أخـيرًا يـا مصطفـي دبـت فيـك الـروح.. نظـروا لعودتـك للحيـاة بعـدم إكـتراث، أمَّـا أنـا فقـد كنـت في قمـة السـعادة رغـم آلامـك .. قـام «أنـور «مـن مكانـه وهمـس في أذن مـولاه الـذي أشـار لـه بالمواقفـة وعلمـت فيـما بعـد أنـه كان يسـتأذنه بالمكـوث لجـواره وإحضـار بعـض الأدويـة للإبقـاء عليـه حيًـا دون المسـكنات حتـى لا يسـاعدوه في التخفيـف عـن ألمـه.

أصبـح ثلاثـة يتقاسـمون المغـارة بعـد رفـضي تركـي الرويعي مـع «أنـور «بمفردهمـا .. رغـم أنـه مـن أنقـذ حياتـه وكنـت على يقـين أنـه لـن يقتلـه أبـدًا إلا أننـي لم أنـم ليلتهـا .. حرمـت النوم

عـلى عينـي بفناجـين القهـوة والميـاه البـاردة التـي كنـت أغسـل بهـا وجهـي بـين حـين وآخـر ليظـل مصطفـى تحـت عينـي ..

لم أعـر نظـرات أنـور لي اهتمامًـا رغـم أنهـا كانـت نظـرات تحـاول الاستفسـار عـن سـبب اضطـرابي .. لم أنطـق بأيـة كلمـه ولا هـو ..فكلينـا كان كل تركيـزه عـلى المريـض الـذي توقـف قلبـه منـذ سـاعات خوفًـا مـن انتكاسـة مفاجئـة.

***

الفصل السابع عشر

سيف الاسلام

يومـان ومازلـت طريـح فراشـك الغـير مريـح يـا رويعـي ..يومـان ولم أنـل أي قسـط مـن الراحـة ..ربـما كان هـذا بديهيًـا كوننـا بتنـا رهينتـين ومشـاركين في صنـع أحـداث أكـبر منـا ..عدونـا واحـد وصديقنـا واحـد ومواقـف قلبتنـا مـن ضابـط وصحفيـه إلى صديقـين.. أنـور سـيف الإسـلام هـذا ياعزيـزي هـو المفاجـأة الحقيقيـة .. كان الأمـر الغير بديهـي في قصة مرضك الـذي شـخصه بحمـى أصابتـك نتيجـه لبكتيريـا نادرة وشرسـة لوثـت جرحـك .. كنـت أنظـر لقسـمات وجهـه الطفوليـة غـير مصدقـة فعـلا أن تلـك اليـد الماهـرة في مـداواة آلام النـاس لانتشـالهم مـن براثـن الوجع وانقاذهـم من موت بطـرق لاترحم هـي نفسـها ذات اليـد التـي تحمـل السـلاح وتعذب وتقتـل .. لا أفهـم في الطـب بتاتـا ولكـن رؤيتـي لطبيـب شـاب يعقـم هـواء مغـارة بـين حـين وآخـر ويعمـل في صمـت عـلى تنظيـف الجرح بأدوات بسـيطة ويخلـط أدوية بأخرى مسـتخدمًا أعشـابًا يخرجها مـن حقيبتـه الجلديـة المـدوَّن عليهـا « الدولـه الإسـلاميه» شـعار « داعـش» والجماعـات المتطرفـة كان يجعلنـي أشـهد لـه بالبراعـة خاصـة مـع تحسـن حالـة « الرويعـي» وعـدم إحساسـه بـالألم ورؤيـة التهـاب جرحـه يتضـاءل أمـام خلطاتـه.

شـطط من الشـيطان أصـاب رأسي عندمـا دارت أسـئلة كثيرة حـول الحـظ العثـر الذي حدثنـي عنـه الرويعـي ليلة توقـف قلبه .. نظـرت لـه، مـا هـذا ياسـيادة الرائـد هـل مـن يحـارب لأجـل حياتـك بعقاقـير الـدواء وخلطات طبيعيـة يضع فيهـا تركيزه كله لينقـذك مـن موت محقق هو نفسـه ربما بعـد انتهاء مهلـه التفاوض يكـون مـن يطلق عليـك رصاصـة إعدامـك ليرقص عـلى جثتك مهلـلا بمـوت الكافـر مشـيرًا بإشـارة النـصر، مطلقـا رصاصتين في الهـواء ابتهاجًـا برحيلـك مـن الدنيا.. عـاودت النظـر إلى وجه سـيف الإسـلام الـذي بـدا منهـكا في خلـط العقاقـير وتطهـير أدواتـه ..وانـت يـا أنـور لمـاذا تفعـل هـذا .. لمـاذا تحـاول جاهدًا إنقـاذ حياتـه والاعتنـاء به لهذه الدرجـة مادام خصمـك اللدود .. هـل يوخـزك ضمير المهنـة .. لماذا تفعـل كل هذا .. هل سـترفض أن تطلـق عليـه رصاصـك إذا مـا أمـرك أمـيرك .. الحكـم الـذي تدنسـون بـه اسـم الديـن وتلصقـون فيـه عـلى الـرب ماليـس فيه .. أخرجنـي مـن شرودي آهـات الرويعـي التـي انطلقـت فجـأة مبحوحـة لتبشر بتحسـن حالـه وأن صديقي الذي كانت تشـعرني أنفاسـه بالأمـان سـيفتح عينيـه أخـيرًا .. سـعل في عنـف قبل أن يفتـح عينيه المجهدتـين .. كان ينظر لوجهينا في اسـتغراب ..يغلق ويفتـح جفنيـه ليتأكـد أنه حقًـا يرانا.

« حمـد الله عااسـلامة يابطـل».. قلتهـا لـه ودمـوع الفـرح تمـلأ عينـي فابتسـم ممتنًـا قبـل أن ينظـر إلى وجـه أنـور الـذي بـدا خاليًـا تمامًـا مـن المشـاعر فعـاود النظـر إليَّ وقـال « فريـده .. هـو إيـه الـلي جـرا .. إيـه الـلي حصـل».

داعبتـه وأنـا أضحـك «إيـه ده يارويعـي بيـه .. انـت شـلت الألقـاب فجـأة كـده ليـه»

ضحـك ضحكـة صافيـة خجلـة « مـا هـو هنـا مفيـش جورنـال عشـان تبقـى أسـتاذة ..ولا في قسـم شرطـه عشـان أبقـى بيـه .. إحنـا مخطوفـين هنـا ومعانـا واحـد غريـب كـده ..خـلاص باظـت بقـه».

عـاود النظـر إلى وجـه سـيف الإسـلام الـذي ظـل خاليًـا مـن المشـاعر فنظـر لي الرويعـي في جديـة «هـو ده الحـرس الجديـد بتاعنـا.. شـفيق باعنـي ليهـم ولا إيـه»

– لا يـا مصطفـي ..ده الدكتـور أنـور الـلي أنقـذ حياتـك مـن المـوت .. إنـت قلبـك وقـف فجـأة وهـو الـلي أقنعهم إنـك لازم تعيـش. وبقالـه يومـين منامـش عشـان حالتـك تسـتقر و..

قبـل أن أكمـل كلامـي انتفـض سـيف الإسـلام مـن مكانـه وتوجـه لإحضـار أدواتـه وأخـيرًا نطـق في عصبيـة « قومـي مـن جنبـه يـا أمَـة الله .. ده وقـت التغيـير عالجـرح» .

نظـر لي مصطفـي الـذي بـدا مندهشًـا لا يفهم مايحـدث ..ربما دارت في عقلـه نفـس أسـئلة الشـطط الشـيطاني الـذي أصـاب عقـلي .. هـل اسـتجاب الله لدعوتـه بـأن يخفـف عنـه الألم مـادام موعـد رحيلـه لم يحـن بعـد .. هـل سـاق أحـد المطالبـين بإعدامه ليهبـه الحيـاه ويبقـي في عنقـه تجاهـه جميـل لـن يسـتطيع إنـكاره حتـى لـو أعدمـه ويصبـح هـو حسـنته الوحيـدة في دنيـاه ..

« إيـه الحـظ الزفـت ده»..عندمـا نطقهـا الرويعـي أيقنـت أن شـكوكي كانـت في محلهـا فـما كان يجـول في خاطري جـال في باله ..التفـت له سـيف الإسـلام الـذي أمسـك بمشرطـه وارتمى على الرويعـي في عصبيـة واضعًـا سـلاحه الطبـي عـلى عنقـه وهو يجز عـلى أسـنانه ويزمجـر ..هـوى قلبي في قدمـي وتسـمرت في مكاني مـن الصدمة

***

الفصل الثامن عشر

بصيص أمل

- رامي هاتلي الملفين بتوع العيلين بتوع الإعدام اللي بسلامته عاوز يفرج عنهم ..وعاوز تحريات أكبر شوية.

- أوامر يا باشا.. بس إحنا رجعناهم .. هو في جديد .

لملم بعض أوراقه وبدا متعجلاً «مترغيش يا رامي ..هات الملفين والتحريات وحصلني بعد ساعتين عند اللوا نشأت».

ووجه «أبو الدهب» كلامه إلى الرائد شهاب وهو يقذف له مفتاح سيارته الجيب «خد ..هات العيلين وتعالالي .. الإجراءات هتخلص وخد معاك القوة الكافية ..مش عاوز يجولي في عربيات ترحيلات مش ناقصين أي حاجة تحصل» .

خرج متجهًا إلى مكان قياداته ..غرفة العمليات التي تأخذ مكانًا مميزًا بالنقطة التي تبعد عن الخيمة عدة أمتار .. نظر الرائدان إلى بعضهما ولم يبديا اندهاشهما فقد اعتادا على أن مختار ضابطا من طراز خاص ومتوقع منه أي شئ .

- أنا هعمل اتصالاتي عشان التحريات جايز أجيب جديد ..

مازح زميله «مكتوبلك تركب العربية كنت هتموت وتاخدلك لفة».

ضحك شهاب «يعني شايفني واخده رحله .. ده رايح أجيب فيها محكوم عليهم بالإعدام .. حاجة كدة منقوق فيها يعني».

ضحك رامي «بقالنا كتير مضحكناش ..خير اللهم اجعله خير.. بقولك إيه تفتكر التعلب بتاعنا بيفكر في إيه» .

رد في ثقة « معرفش بس إنت عارف مختار بيه رجل المفاجآت واللي على إيده بتخلص معظم قضايا الوزارة الصعبة .. واضح إنهم تعبانين في المأمورية دي أوي عشان كل فرق البحث دي تيجي إنهارده وان الواد ده مش مجرد سفاح»

. ....

امتقع وجه الرويعي من الحركة المباغته لسيف الإسلام .. أمَّا أنا فنزعت نفسي من صدمتي وأمسكت بيد الطبيب الغاضب محاولة إبعاد مشرطه عن عنق مريضه إلا أن يده كانت صلبة جدًا في الوقت الذي رأيت فيه دم الرويعي بدأ يظهر على نصل المشرط و الذي جز هو الآخر على أسنانه في تحدٍ واضحٍ متناسيًا ألمه، وقال له «اقتلني .. اقتلني» فصرخت فيهم.

– إيه ياجماعه في إيه.. إنت لسه منجيه من الموت .. إيه هتقتله؟

– ابعـدي إيـدك عـن إيدي.. بدل مـا أأذيكي .. السـبع بتاعك مش هيقـدر يقوم يعملـك حاجة.

قالها وهو ينظر لعين الرويعي الذي بدا صُلبًا قويًا .

– ملكش دعوة ب...

قبـل أن يكمـل كلامـه قاطعـه في عنـف « بقولـك إيـه .. إنت تخـرس خالـص وبطـل الغطرسـة المـيري الفاضيـه دي..بتقـول حظـك أسـود عشـان بعالجـك ده عـلى أسـاس إيـه إن أنـا الـلي حظـي بمبـي» .

ابتسـم الرويعـي ورويـدًا رويـدًا بـدأت ابتسـامته تتسـع حتى تحوَّلـت إلى ضحكـة أصابـت كلينـا بالدهشـة وتسـبَّبت في تـراخ يـد أنـور قليـلاً .. اقتربـت منـه ونهرتـه «إيه يـا رويعـي ده ..إنت بتهـزر .. اقفـل بقـك شـوية ..ده مبيهـزرش ده هيقتلـك» .

– أنـا آسـف يافريـدة بـس مش قـادر ومبسـتفزوش والله بس مـش قـادر أمسـك نفـسي ..ومتقلقيـش مـش هيقتلنـي ميقدرش يعمـل حاجـة غـير لمَّا ربنـا بتاعـه يقول.

امتقـع وجهي ..كان سـيف الإسـلام يتابع حوارنـا ..حاولت أن أهـدئ غضبـه فرد فعـل الرويعـي كان أخر رد فعـل ممكن أن يتوقعـه أحد في تلـك اللحظة.

– معلش يا دكتور أنور. ده تعبان والحمى مأثره عليه وانت دكتور وعارف

نظر لي في خنق .«أنا مش قولتلك ابعدي إيدك عن إيدي.. ده حرام انتي مبتفهميش» .

ووجه كلامه إلى الرويعي «وانت مش همك وبتتريق على ربنا يا زنديق يا ملحد يا كا..»

تحوَّل وجه الرويعي إلى جدية كاملة وقاطعة في هدوء غريب» حاشا لله .. ربنا بتاعنا كلنا فوق هو أدرى بكل واحد فينا من جواه ... ربنا بتاعك انت قاعد بره بيقولك اعمل ومتعملش تبقى مُخير إزاي بقه»

قبض سيف الإسلام على رقبة الرويعي الذي بدا متألمًا «متتريقش عالأمير ..مش كفاية إنه وهبك الحياة» .

نظر له في ثبات «إيه يا دكتور إنت بتتريق على ربنا» .

تلعثم سيف الإسلام ..كان لايفهم ما يحدث غير أن اسم الله أربكه فعنفه «أنا يا زنديق يا ظالم بتريق عالذات الإلهيه ..حاشا لله يا..»

قاطعه الرويعي «أه ..إنت بتقول أميرك وهبلي الحياة.. لالا هو مين عشان يوهبني الحياة ولايموتني.. إحنا بنهرب من قدر ربنا بنروح لقدر ربنا .. لو ربنا مش

كاتبلي أعيش مكنش هيأ كل الظروف وخلى الكلام ييجي على لسانك وكل المخالف لقواعد المنطق والطب ده يحصل عشان لسه ميعادي مجاش» .

شئ ما أصاب أنور بصدمة فظل صامتًا ينظر له قبل أن يترك رقبته في لين مرددًا « أستغفر الله العظيم» .. ألقى بمشرطه في إنائه الذي لايفرغ من المطهر قبل أن يوجه كلامه له «اسمع احنا هنا قاعدبن مع بعض لحد لما تيجي ساعتك اللي ربنا محددها و عشان برده ربنا يهدأ كل الظروف وينولنا شرف القصاص منك ولحد لما الوقت ده ييجي مش عاوز أي كلام .. أنا دكتور وانت مريض ..فاهم» .

من داخلي حمدت الله على انتهاء النقاش بتلك الطريقه فيما أحضر هو قطعة قطن وأغرقها بمطهر ليطهر جرح الرويعي المتناهي الصغر الذي أصاب رقبته من حدة المشرط .. نظر له وهو يمرر قطنته وسأله «هو انت كنت بتضحك ليه؟»

لم يرد الرويعي فعاد سؤاله مرة أخرى فقال «إنت مش قلت مفيش بينا كلام» .. نظر له أنور باستنكار قبل أن يدخل « الرويعي» في نوبة ضحك يؤلم جرحه استفزت ملامح أنور فيما أصابتني بالخوف فقلت له بعصبية « إيه يامصطفى .. هو المطهر ده في حاجة بتضحك ولا إيه.. امسك نفسك شوية بقه مش كده» .

لم يؤثر كلامي به..كنت أنظر لوجه سيف الإسلام وانا مضطربة قبل أن ينظر له الرويعي ويقول «يا راجل بقه من كل الألوان ملقتش غير البمبي .. طب ده إنت شيخ وبتاع اختار لون وقور.. البمبي حرام» .

وضعت يدي على رأسي .. كان الغيظ يتملكني من الرويعي فلم تكن نكتته التي ينتقد بها وصف سيف الإسلام لحظه العَثِر مضحكة .... أمسكت معصمه كإشارة ليقف عن الضحك إلا أنه زاد من ضحكه وقال «متمسكيش إيدي ..أصل الراجل أبو بمبي ده هيقيم عليكي الحد خلاص» .

كنت أشعر بنفاذ صبر غير أن الأمر بات خارج السيطرة .. كانت ملامح أنور سيف الإسلام باردة تمامًا خالية من أي مشاعر .. عيناه متسمرة على مريضه الذي انطلق في نوبة ضحك هستيري يبدو أنه لا يستطيع إيقافها مع أنها تؤلم جراحه وقبل أن أنطق بكلمة فوجئت بسيف الإسلام تصيبه نوبة الضحك هو الآخر.. كل شئ بات مجنونًا فلم أرد أن أخرج عن سياقه فغرقت أنا الأخرى في الضحك .

....

جلس أبو الدهب ينظر في ساعته فضابطه المُكلف بمأمورية إلى قطاع السجون قد تأخر عن موعد قدومه بساعة .. أمسك هاتفه وطلبه :

- إيه ياشهاب ماشي بتفسحهم بالعربية ولا إيه

-لا ياباشا أنا على وصول أهه

- مالك يابني مرتبك ليه؟

- لا مفيش ياباشا أنا داخل عليكو أهه

وصلت سيارة العقيد أبو الدهب .. نزل منها أحمد السمالوطي، ونبيل مراد مكبلين بالأصفاد الحديدية ومعصوبي العينين قبل أن يعطي الضابط المحنك إشارة لرجاله باصطحابهما إلى المكان الذي خصصه لهما .. نظر إلى شهاب الذي بدا مضطربًا .

- مالك يابني في إيه.. هي ناقصه تضربلي وش عكر

- لا مفيش سيادتك ياباشا

قبل أن يرحل أبو الدهب التفت إليه مجددًا وهو يفحص السيارة من الأمام

- إي ده .. الفانوس فين ياحضرة الظابط

- أنا آسف ياباشا حادثة بسيطة وانا رايح

- حادثة بسيطة.. كنت بتخمس بيها ولا إيه

تلعثم الرائد شهاب « لا يا باشا أنا ...»

قاطعه «أبو الدهب» وبدا على وجهه الابتسام «وواقف قدام الفانوس ليه.. على أساس إنك هتفضل واقف قدامه تغطيه طول المأمورية ..مانا هعرف هعرف» .

وصل الرائد رامي حاملاً ملفات وأوراق جديدة ..كان يبدو عليه أنه وصل للكثير من المعلومات حول المحكوم عليهما بلقاء عشماوي وقع نظره على فانوس السيارة المحطّم، وقال وهو يحاول إخفاء ضحكته فيما وقف زميله متلعثمًا.

- ألف سلامة يا باشا.

رد أبو الدهب «لا ألف سلامة إيه.. إنت تاخده دقيقتين واعرف ده حصل إزاي عشان هحبسه فيها» .

ضحك رامي وتوتر شهاب واقترب منه « أبو الدهب» «جت في الحديد يا شهاب بيه.. متعملهاش تاني.. خطيبتك دي مجنونة على فكرة .. بش شكلها بتحبك».. نظر شهاب في دهشة لعقيده الذي التفت « يلا يا رجاله خلص التهريج ورانا شغل» .

نظر شهاب إلى رامي الذي ضحك وقال له « الدنيا كانت مقلوبة عاللاسلكي .. عربية العقيد أبو الدهب واحدة مجنونة بتكسرها في شارع عابدين .. هو إيه الموضوع « .

أجاب في تلعثم «أبدًا والله أنا قايلها إني في الصعيد بالصدفة شافتني في عابدين وعينك ماتشوف إلا النور».

.....

كتيبة الهجامة وأرباب السوابق اختلطت مع أصحاب الدقون والرايات السوداء.. كليهما وجهان لعملة واحده فأينما حلوا هلك الحرث والنسل رغم اختلاف العقيدة إلا أن الوسيلة واحدة، بدا شفيق مرتبكًا « جهزي نفسك عشان هننزل»، نظرت له مستفسرة فأكمل « الجيش والداخلية بيتحركوا تحركات غريبة .. أنا مش غبي .. دول زي مايكونوا عرفوا احنا فين وناقص خطوة .. في خاين ما بين رجالتي» .

من داخلي شعرت بالفرحة فأخيرًا هناك بصيص أمل للخروج من كهوف جبال السفاح، سألته «يعني هيهجموا دلوقتي»، نظر لي قائلا «أنا نزلت مصطفى البلد ومش وقت أسئلة، الواد اللي جوا ده لازم يموت»، قالها وهوى قلبي في قدمي فقد كان يقصد الرويعي وحاولت أن أثنيه

دون جـدوى إلا أن قذيفـة رجـت المـكان نجحـت في إثنائـه فقبـض عـلى معصمـي وتقهقرنـا للخلـف، نزلنـا نحـو المـدق الغـربي أخـر مـكان يمكـن أن تحـاصره الداخليـة لوعورتـه، الأمـر يتطلـب تجهيـزات كثـيرة فجـأة ظهـر المرصفـاوي وحامد الإسـناوي ومهـاب لينضمـوا إلى الكتيبـة المهاجـرة إلى أرض النـار ..إرهابيـو كمـين مدينـه نـصر يهربـون أمـام عينـي ونحـن مـن كنـا نتهافـت عـلى أخبارهـم ونريـد أن نعـرف هوياتهـم، الآن أنـا راحلـة معهـم إلى معاقلهـم في حمايـة شـيطاني العظيـم الـذي تخـلى تمامًـا عـن إنسـانيته....تذكرت لـو أننـي نجـوت أو عـدت مـن ليبيـا لربـما كتبـت لجريـدتي الكبـيرة أعظـم سـبق لي لم أكتـب مثلـه ولـن يواتينـي الحـظ مـرة أخـرى لأكتـب مثلـه .. صحـافي بـلا ورقـة ولا قلـم ولا أمـل.

٤ سـيارات دفـع رباعـي تسـير بسرعـة كبـيرة بـين الكثبـان ...تعـرف طريقهـا دون قصـاصي الأثـر .. كل شـئ يوحـي بـأن الأمـور تمـشي كما تهـوي أنفسـهم .. أمَّا هـو كان جالسًـا بجواري تخـلي عـن رجاله الذيـن تركهم يخوصـون حربهم مـع الداخلية .. كنـت بالنسـبة له ضمان الخـروج الآمن أو هكـذا أراد أن يوهمني رغـم أن الشـكوك راودتنـي أنـه أراد الحفـاظ عـلى حيـاتي ليـس مـن غـدر الهجامـة بقدر الخـوف من غـدر داعشـيو الجبـل الذين سـينكثون أيمانهـم وينقضـون عهودهـم مسـتبحين دمي.

نظـرت إليـه في حنـق «بتبصـلي كـده ليـه» .. لم يعلـق ولم يبعـد عينـه كان يحفـظ تفاصيـل وجهـي ..يريـد أن يـرى نفسـه القديمـة التـي ضاعـت ولـن يجدهـا أبـدًا .. مـا هـذا يـا شـفيق .. المـارد العمـلاق يبكي..خيـالات الدمـوع لا تخفيهـا نظارتـك السـميكة .. قبـل أن أغـوص في استفسـارات كثـيرة، طلـب مـن شـديد المنـاوي أن يعطيـه الفرصـة للقيـادة فالمسـافة مازالـت طويلـة .

دقائـق وتغـير المشـهد .. نحـن محـاصرون ..طـيران القـوات المسـلحة المشـارك في خطـة الداخليـة يمـلأ سـماءنا وسـيارات القـوات الخاصـة والأمـن المركـزي تحـاصر السـيارات الأربعـه التـي استسـلمت أوَّلهـا فيما أعطـى المرصفـاوي الإشـاره لزملائه ببـدء الهجـوم، أمَّـا سـيارتنا فـكان هنـاك وضـع آخـر .

فجأة أخرج شـفيق مسدسـه مصوبـه نحو رأسي وهـو ينظر لي نظـرة مرعبـة، وكأنـه يشـك أنني من أوشـيت عـن مـكان هروبنا الغـير متوقـع .. انطلقـت الرصاصـة .. شـعرت بـألم رهيب وهو يضربنـي عـلى وجهي بعـد إطلاقهـا مباشرة.

***

كان في الجبـال شـأن آخـر، مـن أطلـق قذيفـة الهـاون مـن الداخـل كان أنـور سـيف الإسـلام نفسـه الـذي اتضـح أنـه

يعمل مع الأمن، فهو ذاته من أخبرهم بمكان المغارة وهو من تدخل لإقناع شفيق والمرصفاوي لإنقاذ حياة الرويعي، وأنور ضل طريقه من خلال داعية عبر الفيس بوك وقرَّر السفر للجهاد في سوريا ففوجئ بهم لا يقتلون أعداء الدين بل يقتلون الأطفال والنساء فهرب منشقًا منضمًا إلى جماعة أخرى في العراق فرأى منهم نفس الأمر من ذلك فاستفاق من وهم الجهاد دون أن تُلطخ يده بالدم فظل في رحلة الهروب حتى قابل المرصفاوي في سيناء، وهناك تم الإبلاغ عنه أنه هارب من تنظيم الدولة، ولكنه أنكر فأجبره على قتل أحد الشباب الذين اكتشفوا أنهم يرشدون الأمن عليهم، ومن وقتها كرهه تمامًا إلا أنه استطاع تجنب الدم بأن يختاره طبيبًا للتنظيم إلا أنه وبشكل ما استطاع الاتصال بالأمن ليشرع في الخلاص مما أدخل نفسه فيه مبديًا رغبته في تسليم نفسه بعدها، والحقيقة أن أنور اختار التوقيت المثالي بعد أن أعطى الإشارة لضابط الأمن الوطني حيث رأى أن الرويعي قد بدأ في استرداد جزئي لصحته وانه سيستطيع المقاومة معه، وأن يقوم بدوره داخل الكهوف حتى يسهل على القوات اقتحام جبال بكر .

***

صداع شديد في رأسي لا أستطيع أن أفتح عيني منه.. يداي كانت موثقة... ماهذا هل مت .. هل أحاسب الآن.. الجو حار جدًا ... ماذا فعلت يا إلهي الرحيم لأذهب إلى النار فما رأيته في أواخر أيامي كفيلاً بالتكفير عن أية ذنوب.. رأيته أمامي .. شيطاني الرجيم وقد جث على ركبتيه ليتفحص وجهي.. الآن أيقنت أنني في النار فأي جنة تلك التي ستقبل بوجوده ..

«إنتي كويسة» .. قالها بصوت حنون .. وقتها أيقنت أنني لم أمت .. ولكن ماذا عن الرصاصة .. حاولت أن أعتدل في جلستي فساعدني رغم نهري له ..تفحصت جسدي كله لم يكن هناك أية إصابة وكأنه قرأ أفكاري جلس إلى جواري مخرجا سلاحه وقال «الرصاصة جت في المنياوي.. أهه خلصت الدنيا من شره.. تفتكري أخد حسنات كده ولا سيئات، أنا معدتش عارف حاجة ولا قادر أفرق بين الصح والغلط» .

– إنت جايبني هنا ليه.. إحنا هربنا إزاي .

– عشان كنت عامل حسابي إنهم هيقابلونا في أخر المدق الغربي بعد ما سلسلة الجبال ما تخلص.. إحنا هنخش ليبيا .

باغتنـي رده .. رسـم الفـخ وأوقعهـم فيـه .. ولكـن لمـاذا قتـل المنيـاوي ..لمـاذا أدخـل أصدقـاء سـوئه وزبانيتـه إلى فـخ الداخليـة بأرجلهـم.

– أنـا كنـت عـارف إنـك هتبلغـي .. أنا سـبت الحـزام الجلد بتاعـي والتليفـون قدامـك واحنـا بنجهز عشـان أسـيبك تسرقيه وتبلغـي أبـو الدهـب .. كان عنـدي أمـل متبلغيـش ورغبـة في إنـك تبلغي ..

– إنت كنت عارف إني بلغت

قلتهـا لـه وانـا في حالـة صدمة.وتذكـرت أنـه ربـما تعمَّـد أن يخـبرني بالوقـت ويذكـر أمامـي المـدق الغـربي لأبتلـع الطعـم، ولكـن لمـاذا فعـل ذلـك.. عـدت بذاكـرتي قليـلا إلى مشـهد معاذ نـصر الديـن الملقـى مـن أعـلى الجبـل والـذي أعلـن شـفيق عـن موتـه المأسـاوي إثـر تعثـره بصخرة ليهـوي صريعًـا أثنـاء متابعته للحصـار بمنظـار ..نظـرت لـه

– هو معاذ وقع من عالجبل؟

– لا طبعًـا أنـا الـلي قتلتـه لأنـه كان جـاي يقـولي إنـك إسـتخدمتي تليفـوني وبلغتـي عننـا،

نظرت له في دهشه.

فأضاف .. لو مكنتش قتلته كان هيقول للمرصفاوي وكان هيقتلوكي .

قاطعته «إنت سبتلي التليفون ليه»

قال في ضعف.. لم يخجل هذه المرة من أن تسقط دموعه أمامي «عشان إنتي صح وانا غلط.. عشان أردلك الجميل والمعروف واخليكي تعيشي حياتك طبيعي وترجعي لشغلك وأهلك..عشان مامتش زي الفيران في مغارة جبل ينسفوها.. عشان مامتش على إيدهم .. عشان شفت أن مصيري لازم يكون زي مصير رفعت ..عشان إنتي ...ولا بلاش ..أنا عاوز لأخر مرة أشوف في عنيكي نظرة تعاطف ناحيتي زي زمان .. عشان الشياطين أوقات ممكن تبقى ملايكة ولو لدقيقة عشان مش مخلوقين من نار مخلوقين من طين .. عشان تورثي دي .»

أخرج من جيبه مذكراته التي عنونها بسفاح جبال بكر .. تركها بجواري وأخرج هاتفه المحمول واتصل وهو ينظر لي نظرة لن أنساها مدي عمري ..كان من يتصل به أخر من أتوقعه ليزيد الأمر غموضًا .

– ألو .. مختار يا أبو الدهب .. إنت ظابط كويس ..حلال عليك تعيش وحلال عليك الرتبة.. اسمعني وبلاش كتر

كلام مفيش وقت.. عند مغارة دم موسى في مغاره على المدق الطويل اللي قدام تبان إنها مقفولة بحجر.. شده هتلاقيني فيه مستنيك بس اعمل حسابك مش هتعرف تاخد مني ولا كلمة..أستاذة فريدة هنا وعشان تتأكد أهي معاك.

«فريدة .. ألو يا فريدة»..قالها متلهفًا كنت أنظر إلى شفيق الذي يطالبني بالرد.. دموعه كانت تنزل بغزارة كالأطفال .. ربما قرأت في عينيه ماينوي فعله.. كان بالنسبة لي غولا وذئبًا ماكرًا ذكيًا ..كنت.

أخشى أن أكون طعمًا لفخ جديد فقد أتعبنا ذكاءه وسط كل تلك الجلبة نطقت أخيرًا عندما رأيته ينهار ..كل شئ كان يوحي بصدقه، شد أجزاء مسدسه وانهار . أنا أيضًا كنت أصرخ «موت دلوقتي .. دلوقتي»، يد ما قبضت على ذراعي وشئ ما حاد ضرب رأسي لأفقد الوعي .

***

الفصل الأخير

حـرب ضروس دارت بـين رجـال الداخليـة والأرهابيـين بمسـاعدة قـوات مـن رجـال الجيـش حتى تمـت السـيطرة لأول مـرة عـلى منطقـة جبـال بكـر لتنتهـي أسـطورتها بتسـليم بعـض مـن رجالـه نفسـهم ومـصرع الآخريـن، رأى الرويعـي جثـة سـيف الإسـلام، كان ينظـر لـه بإشـفاق، اقـترب منـه فأخـذ نظارتـه الطبيـة كذكـرى مـن داخلـه كان يقـول « أتمنـى أن ربنـا يكـون قبـل توبتـك»، وصـل أبـو الدهـب لمكان المغـارة فوجد جثـة شـفيق إلا أنـه لم يجـدني حيـة أو ميتـة فزفـر زفـرة قويـة «وبعديـن يافريـدة ..القضيـة دي مـش عـاوزة تنتهـي ليـه بس» .

تحـدث في اللاسـلكي ليخـبر الوحـدات بالعثـور عـلى قصـاصي الأثـر الأمـر الـذي أقلـق الرويعـي فاتصل به يسـتفهم ليكتشـف الأمـر، أخـيرًا ظهـر عليـوة مـع سـيارة مدرعـة كان يغطـي فيهـا الأحـداث، كان يبحـث عـن رفيقـة كفاحـه إلا أنـه لم يجدهـا، ظـل لغـز اختفـاء فريـدة علـم الديـن يصيـب الجميـع بالقلـق حتـى فجـر اليـوم التـالي عندمـا وجدوهـا فجـأة عنـد قبيلـة النـوري يطالبـون بالقصـاص منهـا بنـاء عـلى « تشـميس»، أو حكـم بالإعـدام صـدر ضدهـا لازدراءهـا أميرهـم، لم يعـرف أحـدًا كيـف وصلـت إلى هنـاك، فالبعـض قـال إن ابـن عـم النـوري كان يكرههـا أصـلاً ويتابـع قصتهـا

ويعـرف إنهـا عـلى مقربـة مـن الحـدود حيـث أنـه كان مـع «الهليبـة»، وأضر تحقيقهـا بتجارتـه في السـلاح فقـرَّر أن يسـلمها للنـوري وبذلـك يـضرب عصفوريـن بحجـر، والبعـض قـال إن القصـة أن أحـد الباحثـين عـن الثـروة سـلمها لأحـد أبنـاء قبائـل النـوري ليحصـل عـلى ال٥٠ ألـف درهـم ذهبـي مقابـل رأسـها لتنفيـذ حـد التشـميس فالـسر بقـى عنـد الأمـير الـذي أعطـى الأمـان لصاحبـه وإعطاهـا هـي الأخـرى الأمـان .

***

بعد أسبوعين:

أخرجـت مـن حقيبـة جلديـة وضعـت فيهـا ناعسـة ملابـسي التـي حـضرت بهـا مذكـرات شـفيق، قلبـت أوراقهـا بسرعـة، وجـدت خطابًـا بينهـا فتحتـه « إن وصـل إليكـي فقـد مـت، أنـا سـفاح وقاتـل، لا أريـدك أن تكرهينـي، أن أفقـد الثقـة في هـذا العـالم يـا فريـدة، كنـت أملـك قلـب طفـل، علمـي « مصطفـي» كيـف يحـب مـن يكرهـه و يتعلـم أن يتناسـى ظلـمًا تعـرض لـه وأن يتعامـل معـه، علميـه أن الله خلقنـا لنحـب وأن الله محبـة وأن الـذي يقـدر منـا عـلى كظـم غيظـه هـو الرابـح، واننـا عـلى الدنيـا ضيـوف، علميـه إنـه أينـما أنبتـه الله عليـه أن يزهـر»، سـقطت دمـوع مـن عينـي، داعبنـي ياسـين بـأن أهـدى

لي «الجمل»، لعبته، قابلت النوري أخيرًا بعد هروب من لقاءات مباشرة طويلة، كنت ممتنة له رغم إحساسي إنه ظلمني من البداية لأنه أدخلني في قصة لم تكن لي .

ابتسمت له فناولني السيف الخشبي فصحكت، النوري رجل من طراز رائع وفارس، شرعنا في المبارزة والحقيقة أنه جعلني أربح .

***

أخيرًا أنا في مصر..استقبلني أبو الدهب والرويعي وعليوة ..كنت سعيدة بتجمعنا، طلبت منهم الذهاب للمنيا لاصطحاب مصطفى نجل شفيق، وعرض علينا الرويعي السفر معي ومع عليوة إلى الإسكندريه حيث قررت السفر لملاقاة حسن صديق عمر شفيق، وكان القدر يرسم الكثير فحسن عاقر لاينجب رغم كل محاولاته؛ لذا استقبل نجل صديقه استقبالاً حسنًا، على كورنيش الإسكندريه جلس ثلاثتنا نظر كل منا إلى الآخر وانخرطنا في هستيرية ضحك.

***

الكنزي
ALKANZY